الهجاء فى الأدب الأندلسى

دكتور
فوزى عيسى

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

تليفاكس [illegible] الإسكندرية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الهجـــــاء فـــــى الأدب الأنــــــدلسى

الهجاء فى الأدب الأندلسى

دكتور

فــوزى عيســى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

٢٠٠٧م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

مقدمة :

ازدهرت الدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة ازدهاراً ملحوظاً ، وتنوعت جهود الباحثين المتخصصين فى هذا الميدان ، فأزيل غبار النسيان عن كثير من المخطوطات ، وأفردت دراسات تؤرخ للعصور الأدبية فى الأندلس ، وتستنبط الظواهر والسمات ، وتبرز نشاط الشعراء والأدباء ، وأقبل فريق من الباحثين على دراسة الموشحات والأزجال باعتبارهما فنين أندلسيين خالصين ، بينما عكف آخرون على ما كتبه المستشرقون من إسبان وغير إسبان فنقلوه إلى اللغة العربية لتكتمل الصورة ويتحقق التواصل بين الباحثين العرب وغيرهم .

وقد وجد فى الدراسات الأندلسية اتجاه يهدف إلى إفراد كل غرض من أغراض الشعر الأندلسى بدراسة مستقلة ، فدرس الغزل الأندلسى كما درست الطبيعة والرثاء وشعر الغربة والشعر الدينى ... إلخ .

غير أن موضوع الهجاء لم يستأثر بدراسة مستقلة ، وغاية ما كتب عنه لا يتجاوز الإشارات العابرة المتناثرة أو الأحكام العامة ، حتى لقد ظن كثير من الباحثين أن الهجاء لم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فأنكر وجود الهجاء كغرض من أغراض الشعر الأندلسى معللا رأيه هذا بأن البيئة الأندلسية المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه ، ومما قوى هذا الزعم أن بعض المصادر الأندلسية لم يتسع صدرها لشعر الهجاء فأسقطته وأغفلت ذكر شعرائه ، بيد أن صدور بعض نقاد الأندلس وبعض أصحاب المصادر الأندلسية عن هذا الموقف لدوافع دينية وأخلاقية وسياسية لا ينفى وجود هجاء أندلسى ، بل لا ينفى ازدهاره ، وهذا ما نحاول أن نتتبعه فى هذه الدراسة .

ولا شك فى أن الهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وهو فن عرفته الآداب الأجنبية قديماً وحديثاً ، وإذا استبعدنا هذا الضرب من الهجاء الذى يقوم على البذاءة والفحش والسب والمباشر ، فإن الهجاء بضروبه الأخرى

التى تقوم على التلميح والرمز والإضحاك ورسم الصورة الكاريكاتورية الساخرة يبقى فى نظرنا فناً له سماته وملامحه الخاصة ، وهو بهذه الصورة التى أشرنا إليها يبدو فناً عسيراً لا يقدر عليه إلا من منحه الله موهبة خاصة ، ومن زود بمقدرة تتيح له أن يلمح الدقائق والجزيئات ويبرزها بمهارة تستدعى السخرية والإضحاك .

ولست مع أولئك الذين يرون أن الهجاء " صار اليوم فى عداد الأغراض الشعرية المنقرضة ، أو التى أشرفت على الانقراض [1] " ، فالهجاء لم ينقرض ولم يمت ، ولكنه اتخذ وجهات أخرى ، فلم يعد هو ذلك الهجاء القبلى أو الشخصى أو الذى يعتمد على السب الصريح ، بل تطور بتطور الزمن والحضارة والثقافة ، وأصبح يختفى وراء مسميات أخرى كثيرة .

ولا أتفق مع من ينادون بإسقاط الهجاء أو استبعاده من أبواب الشعر العربى لان ذلك تراث خلفه أسلافنا فضلاً عن أن الهجاء لا يقوم كله على البذاءة والإفحاش ، بل إن النظر إلى الهجاء من هذا الجانب وحده لا يخلو من قصور وإجحاف ، فالهجاء من زاوية أخرى يمثل روح النقد والمعارضة لكثير من سلبيات الأفراد والمجتمع ، ووسيلة لإظهار أوجه القصور والخلل ، وكشف العابثين والمخادعين ، إنه يسعى إلى تحقيق عالم مثالى عن طريق السلب لا الإيجاب أو بطريقته الخاصة التى لا تتفق مع الطريقة التى تعارف الناس عليها ، وقد سبقنا إلى تقرير هذه الحقيقة أستاذنا الدكتور محمد حسين حين قال : " الواقع أن فى الهجاء قوة هجائية بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام، الذى هو أول ما يطالع المتصفح له ، فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور فى حقيقة الأمر حياة أخرى

---

[1] أدب الفقهاء تأليف عبد الله كنون ص ١٦٤ .

بأشخاصها ونظامها وأسلوبها . هي مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له فالهجاء له فلسفة في الحياة يريد أن يؤديها إلينا " . [1]

لهذه الأسباب كلها آثرت أن أفرد الهجاء الأندلسي بدراسة مستقلة ، ولم تقتصر هذه الدراسة على شعر الهجاء وحده بل جمعت بين الهجاء شعراً ونثراً ، وهي تشتمل على ثلاثة أبواب فتعرض في الباب الأول لمعنى الهجاء ومفهومه ومراحل تطوره . ويختص الباب الثاني بدراسة اتجاهات الهجاء في الأندلس ، كالهجاء السياسي ، والاجتماعي ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء التندر والسخرية ، والمعارك الهجائية بين الشعراء .

أما الباب الأخير فيقف عند الجوانب الفنية للهجاء ويقع في فصلين ، أحدهما عن لغة الهجاء وأساليبه ، والآخر عن صور الهجاء الفنية .

ولا أريد أن أشير إلى الصعوبات التي واجهتني في التنقيب عن النصوص خاصة وأن بعض المؤلفين أبوا أن يدرجوا الهجاء في مؤلفاتهم .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

---

(1) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ٢٦ .

الباب الأول

(مراحل تطور الهجاء)

- معنى الهجاء
- مراحل تطوره
- العوامل المؤثرة فيه

الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى :

تدور مادة (هجو) فى المعاجم العربية حول عدة معان نجملها فيما يلى :[1]

١- الهجاة : الضفدع .

٢- وهجو يومنا : اشتد حره .

٣- وهجيت عين البعير : غارت .

٤- وهذا على هجاء هذا : على شكله وقدره ومثاله .

٥- والمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته : أى تذمه وتشكو منه .

٦- وجاء فى الحديث الشريف : " اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر ، فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجانى أو مكان ما هجانى"

٧- والهجاء تقطيع اللفظة بحروفها : أى تعدادها وتفصيلها .

٨- ويقال : هجى البيت هجياً : أى انكشف .

٩- والهجى : الشبع من الطعام .

١٠- ومما هو قريب من المادة : الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب .

١١- والهوج بمعنى الحمق والتسرع .

١٢- والرياح الهوجاء : التى تقتلع البيوت .

وهذه المعانى كلها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى الأدبى لكلمة (هجاء) ، فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع ، فهو قبيح الشكل ، بشع الصوت ، وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ، ففيه معنى التنكيل والتعذيب وقد يكون مأخوذاً من الأصل الهجائى ، فهو يكشف عن سيئات المهجو ...

---

[1] انظر لسان العرب المجلد ١٥ ص ٣٥٣ وما بعدها . أساس البلاغة ٢ / ٥٢٥ .

فمعانى الكلمة تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة تحتمل الزيادة ، وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبى بحيث يشمل غيرها من المعانى القريبة جداً من المعنى الأول ، وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء ، فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق "[1] .

فالهجاء – بمعناه الأدبى – فن من فنون الشعر " يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ، وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب "[2] .

والهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن وثباته فى الشعر . فذهب ابن سلام إلى أن الشعر يندرج فى أربعة موضوعات عد الهجاء واحداً منها وهى : الفخر والمديح والنسيب والهجاء[3] وجعل أبو تمام الهجاء واحداً من أغراض الشعر العشرة التى ضمنها حماسته ، ورأى (قدامة) أن الشعر ينحصر فى أربعة موضوعات هى المديح والهجاء والحكمة واللهو[4] وجاء (أبو هلال العسكرى) فأحل الهجاء محلاً أثيراً فى (ديوان المعانى) ، فوضعه فى الباب الثالث من أبواب الشعر التى قسمها إلى اثنى عشر باباً[5] وحذا حذو أولئك النقاد المرزبانى فى (موشحه) وابن رشيق فى (عمدته) .

ورأى بعض النقاد أن الهجاء هو نقيض المدح على نحو ما نجد عند قدامه[6] وذهب (أبو هلال) إلى أن أبلغ الهجاء ما كان " بسلب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك . وليس

---

(1) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية تأليف الدكتور محمد حسين ص ١٤ - ١٥ .

(2) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص١٢ .

(3) طبقات فحول الشعراء ص ٣٧٨ ٣٧٩ .

(4) نقد النثر ص ٨١ .

(5) ديوان المعانى ٢ / ٣١

(6) نقد الشعر ص ٣٥ .

الهجاء بقبح الوجه وضئولة الجسم وقصر القامة وما فى معنى ذلك بليغاً مرضياً"[1] أى أنه يفضل الهجاء الذى يزرى بأخلاق المهجو لا بخلقته .

والواقع أن فن الهجاء مر بمراحل تطور عديدة على مدى عصور الأدب وتغيرت مفاهيمه وأساليبه وصوره من عصر لآخر لاختلاف دوافعه وأسبابه ولتباين أذواق الناس من حقبة لأخرى ، ففى العصر الجاهلى كان هجاء الشعراء يدور فى معظمه حول الانتقاص من نسب المهجو والإزراء بمكانة القبيلة وإلصاق المخازى بها ، وكان الهجاء يضطلع بدور خطير فى المجتمع الجاهلى حيث كان للكلمة أو للشعر مكانة لا تقل عن مكانة السيف ، وجاء الإسلام فغض من الهجاء وحاربه لأنه يتعارض ومبادئه السمحة التى تنبذ التجريح والتشهير ، ويروى عن الرسول عليه السلام قوله : " من قال فى الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر " [2] .

وقد أكد عمر – فى خلافته – موقف الإسلام من الهجاء حين نهى عن الهجاء المقذع الذى يقوم على الإفحاش وكشف العورات ، كما أمر بسجن الحطيئة عندما علم بهجائه للزبرقان بن بدر فى قصة ذائعة الصيت .

غير أن الهجاء ما لبث أن عاد بصورة قوية فى العصر الأموى بعد أن بعثت العصبيات القبلية من جديد وتطور الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض غير أنه لم يكن يراد بها الجد كما كان شأن الهجاء فى الجاهلية ، ولكن أريد بها اللهو والإضحاك ، كما كانت أشبه بمناظرات أدبية أوجدتها ظروف الحياة الاجتماعية والعقلية فى العصر الأموى أكثر من كونها أهاجى بالمعنى القديم المعروف فى الجاهلية [3] .

---

[1] ديوان المعانى ١ / ٢٠٢ .

[2] العمدة ٢ / ١٢٨ .

[3] التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٠٤ .

وطرأ على فن الهجاء تطور كبير في معانيه وأساليبه لدى شعراء النقائض الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، وإن تباينت أساليبهم في تناول هذا الفن " فغلب على الأخطل فنه الشعري الرصين الذي يعني بالألفاظ ، ويدقق في اختيار العبارات ، فكان في هجائه يرضي فنه الشعري الرفيع بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذي يأكل نفسه ، فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء ، ولكن رصانة ألفاظه ، وجزالتها ، وما تضمنته من معاني شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذي حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة والسخرية البارعة المسلية . وكذلك ظل الأخطل في هجائه – كما هو في كل شعره – شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه في الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس ، ولم يكن يتكلف في شعره ما يتكلف صاحباه من العناء ، فكان هجاؤه أكثر ذيوعاً على ألسنة العامة. أما الفرزدق فكان معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير ، ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه النقاد بأنه ينحت من صخر " [1] .

وما إن نصل إلى القرن الثاني الهجري حتى نرى " الهجاء قد تطور تطوراً كبيراً ، تطور في معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاظه وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة تترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة ... وهذا التطور كان أمراً لابد منه خضوعاً للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييره وقيمه" [2] .

---

[1] الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ص ١٣١ .

[2] الشعر في القرن الثاني الهجري ص ٣١٦ .

والواقع أن التطور الفنى الحقيقى للهجاء بدأ فى القرن الثانى الهجرى كما لاحظ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وهذا التطور " لا يتضح فى القصائد الزاخرة بالسباب والاتهامات والفحش – وخاصة فى تلك الأهاجى التى كانت تدور بين أفراد عصبة المجان وتزخر بألفاظ وتعابير يندى لها الجبين ولكننا نعتبر أن التطور الفنى الذى حدث أساسه الهجاء الساخر الذى يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه ، ولهذا يعتمد على فن أصيل فى رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، ولكنه ليس رسماً تصويرياً بل هو رسم (كاريكاتيرى) يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر فى هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره ، وبجميع عناصر الفكاهة ، والهزل الشائعة بين الناس " [1] .

وهذا الهجاء (الكاريكاتيرى) الساخر هو الفن الذى نماه (ابن الرومى) بعد ذلك ، واعتمده كفن أصيل ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فقال [2] : إن الهجاء يعد من أهم الجوانب التى تلفت النظر فى شعر ابن الرومى فقد أعده مزاجه الحاد ، وقدرته البارعة فى لمح الدقائق والعيوب الجسمانية لضرب من الهجاء يمكن أن نسميه " الهجاء الساخر " إذ كان يعبث بمهجويه عبثاً لاذعاً يشبه عبث أصحاب (الصور الكاريكاتورية) ، فهو يقف عند نواحى الضعف ويكبرها ويظهرها فى أوسع صورة لها . وعلى نحو ما كان يلتقط العيوب الجسدية كان يلتقط العيوب الصوتية والمعنوية " .

وقد برع ابن الرومى فى هذا الضرب من الهجاء براعة كبيرة ، وشهر به حتى لقد أصبحت طريقته فى الهجاء نمطاً يحتذيه كثير من الشعراء بمن فيهم شعراء الأندلس على نحو ما سيتضح فى حديثنا فيما بعد .

---

[1] المرجع السابق ص ٣١٣ .

[2] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢١٢ ٢١٣ .

العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى :

وعلى نحو ما وجد الهجاء فى الشعر المشرقى ، وجد كذلك فى الشعر الأندلسى ، وقد رشحت لوجوده عوامل شتى ، نجملها فيما يلى :

العوامل السياسية :

إن المتتبع للأحداث التاريخية فى الأندلس يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ، " فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمنية " [1] .

وأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب فى كيان المجتمع الأندلسى ، ففى أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعفاء ، وسرعان ما أضحت البلاد نهباً لفتنة عاتية قضت على الخلافة الأموية ، ومزقت وحدة الأندلس ، فانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل واحدة منها حاكم أو أمير ، وأنفق أمراء الطوائف أموالاً طائلة فى تشييد الحصون لحماية ملكهم ، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن يدفعوا صاغرين الجزية للروم ، ودارت رحى الحرب فيما بينهم ، واستعانوا بالروم فى حل خلافاتهم ، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين ، وبعد أن دالت دولة الطوائف خضعت الأندلس لحكم الأفارقة ، وأصبحت تابعة لا متبوعة ، وفى أواخر عصر الموحدين أخذت المدن الأندلسية تتهاوى فى يد الإسبان مدينة إثر أخرى ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التى ظلت تقاوم ردحاً من الزمن إلى أن سقطت فى آخر الأمر مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس .

ولم يقف شعراء الأندلس موقفاً سلبيا إزاء هذه الأحداث ، وإنما ارتفعت أصواتهم تندد بسياسة حكام الأندلس ، وتنتقد تصرفاتهم ، وتصمهم بالخزى

---

[1] فى الأدب الأندلسى ، الركابى ، ص ١٤ .

والمهانـة ، كماعـبر الشعر عن الصراعات القبلية والدعاوى الشعوبية كما سنرى في حديثنا عن الهجاء السياسى .

العوامل الاجتماعية :

إذا قـرأت مـا نظمـه الأندلسيون من أشعار فى الزهد والتصوف ، أو وقفت عـلى جهودهـم فـى الفقـه والعلـوم الدينية ، خيل إليك أن المجتمع الأندلسى مجـتمع زهـد وتقـى ، وإذا قـرأت ما قالوه من شعر فى الخمر والغزل والمجون تـراءى لك أن الأندلسيين لم يعرفوا غير المجون واللهو ، وأنت فى كلا القولين محـق ، فقـد اتصـف الأندلسـيون بـالحدة والـتطرف فـى نظـرتهم للأشياء فقد وجـدت بيـئات الفقهـاء والـزهاد الذيـن كانوا يأخذون بالأشد فى كل حكم من الأحكـام المتصـلة بـأمور الديـن ، كمـا وجـدت معهـا بيـئات أخـرى مالت إلى التسـاهل والـتحرر فصـار فـيها المحظـور مباحاً ، وأصبح غير المألوف مألوفاً ، وأسـرف كـثير مـن الناس فى سلوكهم الاجتماعى ، وعاش بعضهم حياة لاهية صـاخبة وانسـاق كثير من الحكام وراء هذا التيار العابث ، فوصف أحدهم بأنه كـان " ينغمس فى لذاته ويقيم فى ذلك مصطبحاً ومغتبقاً " [1] ووصف آخر بأنه كان " يركن إلى ملذاته ولا يعنيه شيء من أمور مملكته "[2] وظهرت مناكر كثيرة فى المجتمع الأندلسى ، وفى " نفح الطيب " إشارات كثيرة إلى ضروب التحلل والفسـاد ولاسـيما مـا كـان يحـدث فى وادى اشبيلية ، " فقد سعد هذا الوادى بكونـه لا يخلـو مـن مسـرة ، وأن جمـيع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لاناه عن ذلك ولا منتقد " [3] .

وقـد أفـاض الشـعراء فـى وصـف ما كان يدور فى مجالس الخمر من تهتك وعبـث ، وانتشر تيار المجون ، وكثرت عصب المجان من الشعراء الذين كانوا يـتحللون فـى حـياتهم من كل قيد ، فيرتكبون المآثم فى غير مواربة ، ويدعون

---

[1] روض القرطاس ص ١٦٠ .

[2] نفسه ص ١٦٠ .

[3] نفح الطيب ٢ / ص ٥ .

إلى اللذة والمجون جهراً ، وينادون بالزندقة ، ويدعون إلى اعتناق الخمر وتقديسها " [1] .

وتمتعت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة حتى لقد لهجت بعض شواعر الأندلس مثل نزهون الغرناطية ، وولادة بأشعار فى الهجاء بالغة البذاءة والفحش . وكان من الطبيعى أن يفرخ الهجاء ويزدهر فى هذا المناخ الاجتماعى، فكثر السباب والملاحاة وانتقاد بعض المظاهر الاجتماعية الفاسدة .

أثر البيئة المتحضرة :

قد يتوهم بعض الباحثين أن البيئة المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه فلا تقوم له قائمة فيها ، وهذا – فى ظنى – رأى خاطىء ، فالتحضر يرقى بالعقول والأذهان والأذواق ، وكلما ارتقى العقل صار أكثر قدرة على لمح الدقائق والعيوب، وجليت أمامه أوجه الخلل والقصور . وقد تختلف طريقة تناول هذه العيوب من بيئة لأخرى ولكن الموضوع نفسه يظل ثابتاً ، فالشعراء الذين عاشوا فى بيئة بدوية خشنة يتلون هجاؤهم بما طبعوا عليه من بداوة وغلظة . أما الشعراء الذين وجدوا فى بيئة متحضرة فهم يتناولون ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة مغايرة تتميز بالسخرية والتهكم وتناسب الذوق المتحضر.

وربما ساهمت البيئة المتحضرة فى تهيئة الجو الملائم للهجاء بما تنطوى عليه من تعقيد وعلاقات متشابكة وبما يشيع فيها من فراغ وجدة ، وهى – فى جملتها – أسباب تدعو إلى الهجاء وتحفز الشعراء إليه .

التكسب بالهجاء :

ومما أعان على شيوع الهجاء فى الأندلس وجود طبقة من الشعراء الذين احترفوا الهجاء واتخذوه وسيلة للكسب والارتزاق ، وقد وجد هؤلاء الشعراء رواجاً لبضاعتهم فى المجتمع الأندلسى . فقد ذكر المقرى أن أهل الأندلس

---

[1] الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢١٠ – ٢١١ .

" كان لهم في الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد " [1] .

ولم تكن الرهبة من الهجاء وقفاً على أهل الأندلس وحدهم ، بل تجاوزتهم إلى الحكام أنفسهم ، فمنهم من كان يتقرب إلى شعراء الهجاء ويداريهم خوفاً من حدة ألسنتهم ، بل لقد لجأ بعضهم إلى حيل طريفة لصرف الشعراء عن الهجاء على نحو ما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم اشبيلية مع الشاعر محمد بن يحيى القلفاط (ت٣٠٢) ، إذ أمعن هذا الشاعر في هجاء أهل بلده ، وأفحش في ذكر كبرائها وعظماء دولتها ، وهجا إبراهيم بن حجاج نفسه لأنه لم يجزل له العطاء فقال :

أبغي نوال الأكرمين معاولا ... أبغي نوال البومة النكباء

وبلغت القصيدة مسامع ابن حجاج فغضب ولكنه احتال لصرفه عن الهجاء إذ دس إليه من يخبره بأنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه على فراشه ، فخاف القلفاط على نفسه وكف عن الهجاء ، فحمد الناس لابن حجاج هذا التصرف لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلفاط [2] .

وكان سراة القوم من الأندلسيين أشد الناس خوفاً من الهجاء وتذكر الروايات أنهم كانوا يتملقون شعراء الهجاء ويخصونهم بالأموال والهدايا اتقاء لألسنتهم . ويمكن أن نعد الأعمى المخزومي (ت٥٤١هـ) زعيم شعراء هذه الطبقة المتكسبة بالهجاء ، وقد وصفه الحجارى في المسهب بأنه " بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأذاة ، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد ، ولا يزال يخبط الآفاق بعصاه،ويقع فيمن أطاعه أو عصاه، وأصله من المدور ، وقرأ بقرطبة ثم جال على البلدان وأكثر الإقامة في

---

(1) نفح الطيب ١ / ١٩٠ .

(2) البيان المغرب ٢ / ١٩٣ .

غـرناطة"[1] وقال عنه ابن الخطيب في الإحاطة [2] " كان أعمى ، شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ذكي الذهن، فطـناً لـلمعاريض ، سابقاً في ديوان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " ووصف فـي (خـريدة القصر) بالإجادة في الهجاء ، والإغارة على الأعراض ، والإصابة فـيها إلى الأغـراض ، وكـان مهيـب الصـولة ، مـرهوب الجولـة ، مخصوصـاً بالتحايا والتحف والهدايا والطرف " [3] .

ومـن أبـرز شـعراء هذه الطبقة أيضاً (على بن حزمون) أحد شعراء الهجاء فـي عصر الموحدين ، ويشير المراكشي إلى أن ابن حزمون نال عند قضاة المغرب وعماله جاهاً عظيماً وثروة ، كل ذلك خوفاً من لسانه ، وحذراً من هجائه [4] .

وكان لهذه الطبقة من الشعراء أثر في شيوع ضرب من الهجاء المقذع الصريح فهـم لم يـتورعوا عـن شـيء ، ولم يـراعوا حرمة ولا ذمة ، ولم يبالوا بما تقذفه ألسنتهم من بذاءة وفحش .

نقاد الأندلس والهجاء :

سـيطرت الـنزعة الخلقـية والاتجاه المحافظ على النقد الأندلسي ، فخضع الـنقاد لهـذه الـنزعة حـين أبـوا أن يدرجـوا الموشحات في مؤلفاتهم وهي نبت بيئـتهم ، وابـتكار قرائحهم ، كما نفروا من الهجاء ، فصانوا كتبهم عنه ، ولم يسـتجيزوا روايـته ممـا حجـب عنا كثيراً مما قيل فيه . وقد صدر ابن حزم في آرائـه الـنقدية عـن هـذه النزعة فلم يستجز من رواية الشعر إلا ما تضمن الحكم والخـير مجـدداً دعـوة ابـن قتيـبة الـتي نـادى بها من قبل ويرى ابن حزم أنه ينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

---

[1] المغرب ١ / ٢٢٨

[2] الإحاطة ١ /٤٣٢ .

[3] خريدة القصر ٢ /٢٥٥

[4] المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

أحدهـا :الأغـزال والرقـيق . فإنهـا تحـث عـلى الصـبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف الناس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك فى الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد فى الديـن وتبذير المال فى الوجوه الذميمة وإخلات العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجـبات ، ويـرى أن سمـاع شعر رقيق ينتقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحـها ومعاناتها برهة ، لاسيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق . ويهون المعاصى . ويردى جملة [1].

والضـرب الثاني : الأشعار المقولة فى التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعـروة بين الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهـيج الطبـيعة ، وتسـهل عـلى المـرء مـوارد الـتلف فى غير حق وإلى خسارة الآخـرة مـع إثـارة الفـتن وتهويـن الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضـرب الثالـث : أشـعار الـتغرب وصفات المفاوز والبيد والمهامه ، فإنها تسـهل التحول والتغرب ، وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون فى حالة أهل السفه من كناسى الحشوش والمعاناة لصنعة الـزمير المتكسـبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهـاك حرم الآباء والأمـهات . وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة .

وهـناك ضـربان من الشعر يعتبرهما ابن حزم من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء .

---

[1] رسائل بن حزم رسالـــــــــة (مراتب العلوم) ص ٦٥ ٦٧ .

فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح ، وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبة فى مثل ذلك الحال ، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين من الكذب ولا خير فى الكذب [1] .

ولا يستغرب رأى ابن حزم فى الهجاء بالنظر إلى نظرته لأغراض الشعر الأخرى ، فهو يخضع الشعر لمقياس خلقى صارم ، ويصدر فى أحكامه عن نزعة فقهية متشددة تزدرى الشعر وتناصبه العداء ولا ترى ما فيه من فن وجمال.

موقف ابن بسام :

وتحكمت هذه النزعة المحافظة فى نظرة ابن بسام للهجاء ، فهو يصرح بأنه صان كتابه عن شين الهجاء ، وأكبره أن يكون ميداناً للسفاء [2] .

ويقسم ابن بسام الهجاء إلى قسمين :

" قسم يسمى (هجو الأشراف) ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هجواً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعبير ، وتقديم وتأخير " ، ويمثل لهذا النوع من الهجاء بقول النجاشى فى هجاء بنى العجلان :

قبيلته لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل
وما سمى العجلان إلا لقولهم ... خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ومن أمثلته هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر ، وهو قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

---

[1] رسائل ابن حزم ص ٦٥ - ٦٧ .
[2] الذخيرة ١ / ١ ص ٥٤٤ .

أما القسم الثاني من الهجاء عند ابن بسام فهو " هجو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا " ، وهذا النوع هو الذى صنا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شئ منه ، فإن أبا منصور الثعالبى كتب فى يتيمته ما شانه وسمه ، وبقى عليه إثمه [1] .

ويفهم من كلام ابن بسام أنه يؤثر الهجاء الذى يميل إلى التعريض والتلميح بدليل أنه يورد أبياتاً يصفها بأنها " من مليح التعريض " كقول أحد الأندلسيين فى غلام كان يصحب رجلاً يسمى بالبعوضة [2] :

أقـــول لشـــادنكم قولـــة	ولكـــنها رمـــزة غامضـــة
لــــزوم البعـــوض له دائـماً	يـــدل عــلى أنهـــا حامضـــة

وهو يعجب أيضاً بقول القائل :

بيـنى وبيـنك سـر لا أبـوح بـه	الكـــل يعـــلمه والله غافـــره

وفى ظنى أن نظرة ابن بسام للهجاء لا تقوم على أساس دينى أو أخلاقى ، ومما يقوى هذا الظن عندى قوله فى ترجمة ابن صارة الشنترينى : " ولقد رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تربى على حصى الدهناء ، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم ، طويت عليه كشحاً ، وأضربت عن ذكره صفحاً ، وربما ألمعت منه بالأقل ، لترى فتستدل ، ولو استجزت أن أثبت فى هذا الكتاب ، بعض ماله فى هذا الباب لتحققت أنه بالجملة بائقة محاجاة ، وصاعقة مهاجاة وقد كتبت من ذلك فى كتابى المترجم " ذخيرة الذخيرة " جملة موفورة له ، ولطوائف كثيرة .. " [3] .

وهذه العبارة الأخيرة توضح أن ابن بسام لم يلتزم بموقفه المتشدد من الهجاء إلا فى كتاب " الذخيرة " – وإن كان قد أخلّ أحياناً بهذا الالتزام فى بعض ما

---

(1) الذخيرة ١ / ١ ٥٤٦

(2) المصدر نفسه ١ / ١ ص ٥٤٦ – ٥٤٧

(3) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٨٣٥

ذكره من روايات وأشعار – ويمكن أن نرجع إقصاء الهجاء عن كتاب الذخيرة إلى عامل آخر يتمثل في " حرص ابن بسام على المواضعات والعلاقات الاجتماعية وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه "(١) .

وكان " عبد الواحد المراكشي " ممن أقصوا الهجاء عن مؤلفاتهم ، وقد صرح برأيه هذا في ترجمته لابن حزمون فقال : " ولعلي بن حزمون هذا قدم في الآداب ، واتساع في أنواع الشعر ، .. وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول غير أنه يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، ابتدأ فيها بهجو نفسه" (٢) ويعقب على أبيات ابن حزمون بقوله " وله في هذا المعنى أحسن من هذا بكثير إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عني " (٣) .

وقد ابتعد بعض الشعراء عن الهجاء تأثراً بهذه النزعة ، فصدف عنه ابن حمديس – لا عجزاً منه عن مزاولته – ولكن لأن السب ليس من شيمه ولأن الإسلام يأبى أن يجرح المسلم أخاه – ويتضح هذا في قوله : (٤)

يقولون لي : لا تجيد الهجاء   فقلت : ومالي أجيد المديح
فقالوا لأنك ترجو الثواب   وهذا القياس لعمري صحيح
فقلت : صفاتي ، فقالوا : حسان   فقلت نسيبي ، فقالوا : مليح
فقلت : إليكم ، فلي حجة   وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل   وفسق اللسان مقال القبيح
ومالي وما لا مرىء مسلم   يروح بسيف لساني جريح

(١) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين – للدكتور إحسان عباس ص ١٠٠ .
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٤ .
(٤) ديوان ابن حمديس ص ٩٤ .

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته ، فلم يعرف عنه أنه هجا أحداً أو انزلق فى معارك هجائية مع أحد ، بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين [1] وقد أشار إلى ذلك فقال [2] :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطة	على أن بعض الناس أصبح يهجونى
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول	يحيل على الأعراض حد السكاكين

ويتكرر موقف ابن حمديس من الهجاء عند الأعمى التطيلى كما فى قوله [3]

وساقط نال من عرضى فقلت له	إليك عنى فليس السب من شيمى
أعرضت عنه ولو أنى عرضت له	سقيته حمة الأفعى من الكلم

ويصدر الرصافى عن الموقف نفسه فيقول : [4]

عفا الله عنى فإنى امرؤ	أتيت الصناعة من بابها
على أن عندى لمن هاجنى	كنائن عضت بنشابها
ولو كنت أرمى بها مسلماً	لكان (السهيلى) أولى بها

غير أن هذه النزعة كانت محدودة ولذلك فهى لم تمنع من رواج شعر الهجاء ، كما أن العوامل التى أدت إلى ذيوع الهجاء كانت أقوى من هذه النزعة ، فالمجتمع الأندلسى – بتكوينه السياسى والاجتماعى والحضارى – كان مهيأ لتقبل الهجاء ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المراكشى من أن أهاجى ابن حزمون على ما فيها من إقذاع وفحش – كانت تحفظ وتدرس فى جميع بلاد المغرب والأندلس [5] ، وقد أشرنا من قبل إلى ما روى عن بعض شواعر الأندلس من هجاء مقذع ، ومن الطريف أن نجد الحكام أنفسهم

---

(1) الشعر العربى فى صقلية ص ٤٠٧ .

(2) ديوان ابن حمديس ص ٥١٥ .

(3) قلائد العقيان ص ٢٨٢ .

(4) قلائد العقيان ص ٢٨٢ .

(5) المعجب ص ٣٧٤ .

يشـاركون فـى الهجـاء ، فثمة رواية تقول إن مجاهد العامرى كتب إلى المنصور ابن أبى عامر رقعة لم يضمنها غير قول الحطيئة :

دع المكـــارم لا تـــرحل لبغيـــتها   واقعـد فـإنك أنـت الطـاعم الكاسـى

فرد عليه المنصور برقعة جاء فيها :

شـــتمت موالـــيها عبـــيد نـــزار   شـــيم العبـــيد شـــتيمة الأحـــرار [1]

ويذكر المقرى أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على امتحن الشعراء بهجو وزيره أبى جعفر بن عطية [2] .

---

[1] المغرب ١ / ٣٣٢ .

[2] نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

الباب الثاني

(اتجاهات الهجاء الأندلسي)

درج النقاد على تقسيم الهجاء تقسيمات مختلفة وإن كانت تنحصر فى ثلاثة موضوعات هى الهجاء السياسى والهجاء الاجتماعى والهجاء الشخصى . ولكن هذا التقسيم قد يضيق أو يتسع تبعاً لظروف كل عصر من العصور ؛ فالهجاء الجاهلى كان ينحصر فى هجاء الأشخاص والقبائل ، ثم اتسعت موضوعات الهجاء بعد ذلك فأصبحت تشمل الأفراد والجماعات والأخلاق والمذاهب ، وتطرق الهجاء إلى كل أمر من أمور الحياة ، حتى ليقول الجاحظ وهو محق فى ذلك – " إن الشعراء يهجون بكل شىء ، ويهجون كل شىء "[1]

وعبارة الجاحظ تصدق كل الصدق على الهجاء الأندلسى ، فقد اتسعت مجالاته ، وتعددت اتجاهاته ، فوجد الهجاء السياسى ، والهجاء الاجتماعى وهجاء أصحاب الوظائف الرسمية ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء المدن ، وهجاء التظرف والسخرية ، كما نشبت بين الشعراء معارك هجائية .

وسنؤثر كل موضوع من هذه الموضوعات بفصل مستقل .

---

(1) الحيوان ١ / ٢٥٦

الفصل الأول

الهجاء السياسى

- هجاء الملوك والحكام
- الهجاء القبلى
- هجاء البربر
- هجاء اليهود
- هجاء الشعوبية

الهجاء السياسى هو كل ما يتصل بشئون الحكم وأمور السياسة ، وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزب أو الدين .

والشاعر – فى هذا اللون من الهجاء – " يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بإحساسهم ، ويرى بأعينهم ، فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثراً ، والدولة أو الوطن شىء حى له وجود قوى وكيان ظاهر وملموس [1] ".

وقد جاء الهجاء السياسى فى الشعر الجاهلى ولكن بمفهوم ضيق إذ انحصر فى تصوير ما شجر بين القبائل من خلافات ومنازعات ، فاقتصر على لون واحد من ألوان الهجاء السياسى هو " الهجاء القبلى " ولم يتجاوز هذا اللون إذ " لم يكن الوطن عند الجاهليين يصور حدوداً جغرافية معينة كما نتصور اليوم من هذه الكلمة ولكنه يصور جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب ، فكان الوطن هو العصبية " [2] .

واتسع مفهوم الهجاء السياسى بعد العصر الجاهلى بتطور الظروف السياسية وتعددت ألوانه ، فبرزت فيه عصبية الوطن والتعصب للدين أو الجنس ، واتجه جانب منه إلى تصوير الميول الحزبية ، وانصب بعضه على نقد سياسة الملوك والحكام .

(وباستقراء ما خلفه الأندلسيون من شعر فى الهجاء يتضح أن الهجاء السياسى هو أكثر اتجاهات الهجاء رواجاً . وذلك نتيجة للعوامل السياسية التى أشرنا إليها من قبل ، وقد تباينت صور الهجاء السياسى فى الأندلس ، وتوزعت بين هجاء الملوك والحكام ، والهجاء القبلى ، وهجاء الشعوبية ، وهجاء البربر والروم واليهود .

---

[1] الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١١٤ .

[2] المرجع السابق ص ١١٤ .

هجاء الملوك والحكام :

راج هذا اللون من الهجاء فى الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة من أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها ، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شئون الرعية ، وتقاعسهم عن الجهاد ، ومن هذه الأسباب أيضاً ما يرد إلى عوامل ذاتية أو شخصية تتمثل فى فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يبعده الحاكم عن دائرة اهتمامه أو يضن عليه بالعطاء .

ونلاحظ أن أغلب قصائد هذا الضرب من الهجاء لا تنسب إلى قائل بعينه وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام ، وتحفل مصادر الأدب بروايات تشير إلى مواقف بعض الحكام الصارمة إزاء شعراء الهجاء ، حتى أن بعضهم كان يأخذ الشعراء بالمظنة والشبهة ، كما فعل المستنصر المروانى مع ابن فرج الجياني – صاحب كتاب الحدائق – وكان ابن فرج صديقاً للمستنصر وقريباً منه ، وألف له كتاب " الحدائق " ومع هذا فقد رفع له أنه هجاه ، فسجنه حتى مات فى سجنه [1] كما تذكر الروايات أن هشاماً المؤيد قطع لسان الشاعر أبى المخش عاصم بن زايد لأنه كان جسوراً على الأعراض [2] وكان يوسف بن هارون الرمادى (ت ٤٠٣هـ) أحد الشعراء الذين تعرضوا لضرر الحكام وبطشهم ، فقد اتهم فى أيام الحكم مع جماعة من الشعراء بشعر قيل فى ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يولى ويعزل من يومه   فلا ذا يتم ولا ذا يتم

ويقول ابن خاقان [3] : " وشاعت عنه أشعار فى دولة الخليفة وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقاهم كؤوس مهلها ، أو غرت عليه الصدور

---

[1] المغرب ٢ / ٥٦ .
[2] نفسه ٢ / ١٢٣ .
[3] مطمح الأنفس ص ٧٢ .

وفغـرت علـيه المـنايا ، ولكـن لم يسـاعدها المقـدور ، فسـجنه الخليفة دهراً وأسلكه من النكبات وعراً " .

ويوضـح ابـن حيان فى المقتبس قصة الإيقاع بالرمادى ونفر من رفاقه فيقول فـى حوادث سنة ٣٦١هـ : " وفى يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخر مـنها أوقـع صـاحب المديـنة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصب الـبطراء مـن أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة ، العاملين بذرب الألسنة أنبهه عيسى بن قرمان الملقب بالزبراكة ، الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأ المـنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم رمـوا بالاسـتخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوع فى أعراض الناس ونش مثالـبهم ، فـى أشـعار يجـتمعون عـلى صـوغها ، ويتبارون فيها ، فرأى أمي المؤمـنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلا فـى إهانـتهم جـزاء بمـا كسـبت أيديهـم ومازورت ألسنتهم ، فكان ممن ألص الطلـب له والبحـث عـنه مـن مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاع المعـروف بـأبى جنـيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث ، والنداء علي متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تليقه ، والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعب مستبسـلاً لحـتفه ، فأقـبل مغـيراً طلعته ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبداً له فو رأسـه كـيما يـتوطأه فـى السـجن فـلم يؤبـه له حـتى انـتهى إلى بـاب السج بالزهراء... " [1] .

ويذكر صاحب المعجب أن الرمادى نكب مرة أخرى فى خلافة المنصور اب أبـى عامـر ، لأن الـرمادى — كمـا زعـم — كـان مشـايعاً للمصحفى وأغراه ه بهجـاء المنصـور ، فـلما حدثـت نكـبة المصحفى ، واستصفيت أمواله ، التف المنصور إلى الرمادى وأوسعه عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده فقب الشفاعة فيه ولكنه أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد فى جميع جها

---

[1] المقتبس ص ٧٢ وما بعدها (ط. بيروت)

قرطبة ، فأقام الرمادى كالميت إلى أن توفى فى أواخر حكم المنصور بن أبى عامر [1] .

وهذه الروايات صادقة الدلالة على ما كان يلقاه الشعراء من عنت الحكام وقسوتهم مما دفع كثيراً منهم إلى إخفاء أسمائهم خشية ورهبة " ولا شك أن صدور شعر الهجاء الموجه للسلطة من أناس مجهولين ، يجعلنا نقرر مطمئنين ، وجود المعارضة ، وهذه المعارضة لا تتمكن من إبداء آرائها ، فهى تتخفى وتتستر وتسلك سبلاً مختلفة لإظهار وجهة نظرها تجاه الحكومة ، فقد تستغل ما يحدث بين الملك وأحد وزرائه من خلاف أو فتور لتنطقه بهجاء الملك ، والتشهير بالحكم والحكام .. وقد تلصق أهاجيها بأحد الشعراء البعيدين عن سطوة الحكم ، أو تترك أهاجيها من غير قائل معين " [2] .

ومهما يكن من أمر ، فإن تشدد الحكام مع شعراء الهجاء لم يؤد إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة بمساوئهم ومثالبهم ، ، فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكشفوا عن أوجه الفساد فى سياستهم ، وتحدثوا عن انغماسهم فى الترف والملذات ، وتشبثهم بكرسى الخلافة على حساب مصالح الرعية وتظاهرهم بالنسك والورع ، وتضليل عقول الناس ، وإيثارهم الخمول والدعة ، والتخلى عن أداء الجهاد ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يهاجمون سياسة الحكم وينتقدون تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسى " من الموضوعات الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة ، وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة (صبح) ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد ، ووضع كهذا

---

[1] المعجب ص ٧٠ - ٧١ .

[2] الشعر فى ظل بنى عباد ص ٢٠١ .

من شأنه أن يثير بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرُّ المتبرمين [1] .

ونجد أحد الشعراء المجهولين يصم دولة المنصور بن أبى عامر كلها بالفساد ويقذف المنصور نفسه بأفظع التهم فيقول : [2]

اقترب الوعد وحان الهلاك	وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب	وأمه حبلى وقاض ...... [3]

والشاعر فى هذا الهجاء الموجع يعنى بالخليفة (هشاماً المؤيد) لأنه كان صغير السن آنذاك ، ويعرض بأمه (صبح البشكنسية) وكان الأعداء يتهمون بها المنصور ، ولم ينج القاضى من لسان الشاعر ، فرماه هو الآخر بهذه التهمة الشنيعة .

ويشير المقرى إلى بعض تصرفات المنصور بن أبى عامر التى أثارت النقد والسخط فيذكر أن المنصور حجر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ، ويأمر أن ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له ، وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة : [4]

---

[1] الأدب الأندلسى .من الفتح إلى سقوط الخلافة تأليف الدكتور أحمد هيكل ص ٣١٢ .

[2] نفح الطيب ١ / ٦٠٣ ، البيان المغرب ٢ /٤١٨ .

[3] حذفنا هذه الكلمة لقبحها وهى واضحة من السياق والقافية .

[4] نفح الطيب ١ / ٥٩١ .

أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم ؟ وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ويشير ابن عذارى إلى ما جرت عليه سياسة بعض ملوك بنى أمية من سوء وفساد فينقل عن ابن حيان قوله عن المستعين بالله : " كان ملكه بقرطبة وغيرها أولاً وآخراً ست سنين وعشرة أيام كلها شداد نكرات كريهات المبدأ والفاتحة لم يعدم فيها حيف ولا أمن فيها خوف لتغير السيرة واشتعال الفتنة . دولة كفاها ذماً أن أنشأها شانجة ووزرها دب فتمخضت عن الفاقرة الكبرى" [1]

ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار بأبشع الصفات فيذكر أنه أظهر من الخلاعة والضعف ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب ، واشترى له صقلبى كان يتعشقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية أبى القاسم المصرى الخيالى ، التى يقال لها (بستان) وامرأة ابن الشرح التى اسمها (واجد) ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها ، فكان هذا من أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لديه ، ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق ، مظهراً للخلاعة ، لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى، حتى قال بعضهم فيه : [2]

أمير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيهاً ... ضعيف العقل شيناً غير زين

وقيل فيه أيضاً : [3]

أشأم خلق على العباد ... والناس من حاضر وباد
أبو الوليد الذى اقشعرت ... لنحسه شعرة البلاد

---

[1] البيان المغرب ص ١١٨ .
[2] البيان المغرب ص ٧٩ - ٨٠ .
[3] نفسه ص ٨٠

كـــان عــــلى قومـــه جمــيعا مـــزار عـــاد لقـــوم عـــاد

ويفهـم مـن كـلام ابـن عـذارى أن هشـاماً كـان أكثر ملوك بنى أمية عرضة لهجاء الشعراء وانتقادهم لتصرفاته فيعقب على الأبيات السابقة بقوله :

" وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به " [1] .

وفى عصر الطوائف لم يضعف هذا اللون من الهجاء خلافاً لما يراه " غرسيه غومس " إذ يظن أن استبداد طواغيت الحكام بالناس أيام الطوائف أدى إلى زوال هذه الفن [2] . وقد مال إلى هذا الرأى أيضاً الدكتور إحسان عباس فرأى أن صوت النقد الموجه ضد الحكام لم يكن قوياً جهيراً فى أيام الطوائف [3] وكرر الرأى نفسه فى موضع آخر فقال [4] : " وقد نقدر أن حرية التعبير فى عصر الطوائف كانت ضيقة الحدود ، وأن الخوف ألجم الناقمين والمتذمرين عن الإفصاح بما كانوا يحسونه " .

وفى تقديرى أن اختلال الأحوال السياسية كان من أكبر العوامل التى وجهت الشعراء إلى هجاء ملوك الطوائف ، فقد غضب الشعراء لما أصاب الأندلس من تمزق ، ولما رأوه من تنازع الحكام وانصرافهم عن مصالح الرعية وانشغالهم بإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم ونزواتهم ، فكان الشعر لهم بالمرصاد ، يفضح تصرفاتهم ويكشف زيفهم وخداعهم ، ومما يدل على رواج الهجاء السياسى فى عصر الطوائف – أن أحداً من الحكام لم يسلم من هجاء الشعراء حتى بنى عباد حكام اشبيلية الذين عرفوا بالفضل وتشجيع الأدب فقد قيل فى ذمهم شعر كثير ، غير أن هذا لا يعنى أن كل ما صوب إلى ملوك الطوائف من أسهم الهجاء كان لدوافع سياسية أو لأسباب تتصل بالعصبية للوطن أو للدين ، فهناك جانب من هجاء الشعراء للحكام قيل لدوافع ذاتية ،

---

[1] البيان المغرب ص ٨٠ .

[2] الشعر الأندلسى ص ٦١ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤٥ .

[4] المرجع السابق ص ١٤٩

كـأن يخيب رجاء الشاعر فى عطائهم فينقلب عليهم من المدح إلى الهجاء كقول أبى الحسن جعفر بن إبراهيم اللورقى الذى ارتحل إلى اشبيلية للظفر بعطاء بنى عباد ولكنه لم يظفر منهم بطائل فهجاهم بقوله [1] :

تعـز عـن الدنـيا ومعـروف أهـلها ... إذا عـدم المعـروف فـى آل عـباد
حللـت بهـم ضـيفاً ثلاثـة أشـهر ... بغـير قـرى ثـم ارتحلـت بـلا زاد

ومـن هـذا الضرب قول الحصرى يعرض بهم عندما أرسل غلامه – وهو فى طنجة – يبغى عطاء المعتمد فلم يجبه : [2]

نـــبه الركــــب الهجوعـــا ... ولم الدهـــــر الفجوعـــا
حمــــص الجــــنة قالــــت ... لغلامــــى لا رجوعـــا
رحـــــم الله غلامـــــى ... مــات فــى الجــنة جوعـــا

ويعـرض ابن شرف بالمعتضد بن عباد ، ويندد بما قيل عن بطشه بكثير من وزرائـه وندمائه حتى لقد خاف أن يفد إليه لئلا يتعرض لما تعرض له غيره من مصير مؤلم فيقول فى أسلوب لاذع [3] :

أإن تصـيدت غـيرى صـيد طائـرة ... أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتنى فرصـة أخـرى ظفـرت بهـا ... هيهات ما كـل حين تمكـن الفرص
لـك الموائـد للقصـاد مترعـة ... تـروى وتشبع لكـن بعدهـا غصـص
ولست أعجب من قوم بها انتشبوا ... لكـنما عجـبى مـن معشـر خلصـوا
ولم يطـب قـط لى مـن لا يلـذ ولا ... سـلوى إذا كـان فـى عقباهما مغص

ولم يقـف الشعراء فى هجائهم لبنى عباد عند هذا الجانب من هجائهم بل أكثروا من ذمهم ونقد سياستهم ووصفهم بالجور والطغيان ويبدو أن المعتضد كان أكـثر بـنى عـباد تعرضـاً لهجـاء الشعراء . فهو لم يسلم من هجائهم حتى بعد

---

(1) نفح الطيب ٤ / ٢٢٦ .
(2) وفيات الأعيان ٣ / ٢٠ .
(3) الذخيرة ٤ / ١ / ١٤٢ .

وفاته على نحو ما نجد فى قول ابن زيدون يعبر عن شماتته عندما نعاه الناعى ويصفه بالطاغية ، فيقول : [1]

لقد سرّنا أن النعيَّ موكل ... بطاغية قد حم منه حمام
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى ... ومر عليه البرق وهو جهام

ومما ينسب إلى ابن رشيق قوله فى هجاء بنى عباد : [2]

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

ولم يسلم المعتمد من هجاء الشعراء برغم ما عرف عنه من صفات طيبة وثمة رواية — إن صحت — فهى بالغة الدلالة على حساسية المعتمد تجاه الهجاء ، فقد ذكر المقرى نقلاً عن الحجارى أن يوسف بن تاشفين أهدى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة وجاء بها إلى إشبيلية ، فخرج إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية وقعد على الراح ، فخطر لها أن غنت — عندما انتشى — هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ... ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغى هندية ... أمضى - إذا انتضيت - من الأقدار
إن خوفوك لقيت كل كريهة ... أو أمنوك حللت دار قرار

وتقول الرواية أن المعتمد عندما سمع أبيات الجارية وقع فى قلبه أنها عرضت بساداتها فلم يملك غضبه ورمى بها فى النهر فهلكت [3] .

ويذكر ابن بسام أنه نسب إلى ابن عمار شعر كثير فيه قدح فى المعتمد وآله وذويه وعياله ، منه هذه القصيدة التى عرض فيها بأم بنيه المعروفة بالرميكية ، وفيها يقول : [4]

---

(1) ديوان ابن زيدون ص ٥٩٢ .
(2) اعمال الاعلام (ط. بيروت) . ص ١٤٤ .
(3) نفح الطيب ٤ / ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(4) ديوان ابن عمار ص ٢٩١ .

ألا حي بالغرب حياً حلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعرج بيومين أم القرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد ... ولم تر للنار فيها اشتعالا
أيا فارس الخيل يازيدها ... حميت الحمى وأبحت العيالا
أراك توري بحب النساء ، ... وقدماً عهدتك تهوى الرجالا
تخيرتها من بنات الهجان ... رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العذار ... لئيم النجارين عماً وخالا
بصفر الوجوه كأن استها ... رماهم فجاءوا حيارى كسالى
قصار القدود ولكنهم ... أقاموا عليها قروناً طوالا
أتذكر أيامنا في الصبا ... وأنت إذا لحت كنت الهلالا
أعانق منك القضيب الرطيب ... وأرشف من فيك ماء زلالا
وأقنع منك بدون الحرام ... فتقسم جهدك أن لا حلالا
سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً ... وأهتك سترك حالا فحالا

ويقول صاحب الخريدة إن هذه القصيدة كانت من أقوى الأسباب التي جعلت المعتمد يأمر بقتل ابن عمار [1] ولكن أحد الباحثين يتشكك في نسبتها ابن عمار الذي كان له حساد ومنافسون كثيرون لا يستبعد صدورها عنهم ، ويرجح أن تكون هذه الأبيات " نظمت بتحريض من ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود الذي هجاه ابن عمار قبل هذا " ويبني تشككه أيضاً على " أن الأفكار والمعاني التي تقوم عليها القصيدة من فحش بذيء ، وإقذاع مقزز ، وتشهير شنيع ، لا تسمح بنسبتها إليه ، مهما تصاعد الحقد والكراهية بينهما ، بالإضافة إلى عدم انسجامها مع أفكاره ومعانيه ، لأنه حتى في هجائه لابن عبد العزيز وهو من أشد أعدائه لم يقذع ، ولم يصل إلى ما وصل إليه في هجائه لصديقه الحميم المعتمد من إسفاف وانحطاط " [2]

---

[1] جريدة القصر ٢ / ٧١ .
[2] شعر في ظل بني عباد ص ١٩٩ - ٢٠٠

وفـى رأيـى أن الفهـم الدقـيق لشخصـية ابن عمار يؤكد نسبة هذه القصيدة إليه، فقد عـاش هـذا الشاعر فى مجتمع يخضع للمصالح والأهواء " وفى هذا الجو المتقلب المتموج ، برزت شخصية الرجل القلق المغامر الذى يتجول من بلد إلى بلد عارضـاً مهارتـه عـلى من يقدرها حق قدرها ، يستوى فى هذا مختلف ذوى المهـارات المطلوبـة مـن جندى وكاتب وشاعر ومعمارى وصاحب أى حرفة أخـرى ، ولم يكـن اخـتلاف الديـن حاجـزاً فـى هـذه الأمـور ، فكـان السـيد القنبـيطور يخدم المصلحة ، فتارة يحارب من أجل أمير مسلم ، وتارة من أجل أمـير نصـرانى ، ولما سقطت طليطلة فى يد النصارى حلق الفقيه أبو القاسم بن الخـياط وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتباً عند الأذفونش [1] وأنموذج هذه الشخصية من الجانب الإسلامى – فى مقابل القنبيطور – شخصية الشاعر ابن عمـار ، فقد نشـأ فقـيراً محـروماً ، ولكـنه كـان مشـرباً بالطموح ، انتهازياً ، مكـياً فيللياً ، مستعداً لأن يركب إلى غايته كل واسطة ، مؤمناً بالصداقة بمقدار ما تبلغ أهدافه " [2] .

ويكـاد الدارسـون لابـن عمـار يـتفقون عـلى ما عهد فيه من طباع أقرب إلى التدنى . يقول باحث آخر [3] " كان ابن عمار وصولياً – إذا صح التعبير – مع أخلـص أصـدقائه ، فقـد خـان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهـر ، رغـم مـا بيـنهما من علاقات وثيقة ليوقع به ، كما لم يسلم من لسان السـليط ، أمـير بلنسـية ، عبد العزيز بن أبى عامر ، والمعتصم بن صمادح أمير دانية الذى كانت تربطه بالشاعر أوثق الصلات " .

وفـى إطـار هـذا الفهـم لطبـيعة ابـن عمار تبدو نسبة هذه القصيدة إليه أمراً طبيعـياً ، وحـتى إذا كانـت هـذه القصيدة محل شك – وهو ما لا نميل إليه

---

[1] المغرب ٢ / ٢٢ .

[2] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٤ .

[3] محمد بن عمار الأندلسى تأليف الدكتور صلاح خالص ص ٨١ .

فمـاذا نقول فيما ذكره ابن بسام من أن لابن عمار شعراً كثيراً نسب إليه فى ذم المعتمد وآله وبنيه ؟

وعـلى أيـة حـال ، فـلم يكـن بنو عباد هم وحدهم المستهدفين لأهاجى ابن عمار ، فقد هجا أيضاً بنى عبد العزيز أمراء بلنسية فى عصر الطوائف ، ويقول ابـن بسام [1] : " وكانت حال ابن عمار ، حين تردد بتلك الأقطار من بلد بنى هـود ، قد تمكن منهم بالمؤتمن ، إلا أن بنى عبد العزيز كانوا يشرقونه بريقه ، ويوعرون عليه السهل من طريقه ، ويبلغه عنهم ما تتوقد له ضلوعه ، وتنسكب مـنه دموعـه ، بلغـه عنه – يعنى ابن عبد العزيز – وعن ابن طاهر أنهما ندرا فيه بسبب خاتمين كان المؤتمن ختمه بأحدهما ، والآخر أذفونش ابن فرذلند ، فكتب ابن عمار إلى ابن عبد العزيز : [2]

قـال للوزيـر ولـيس رأى وزيـر ... أن يتـبع التـندير بالتـندير
إن الـوزارة مذلبسـت رداءهـا ... وقـف عـلى التغـيير والـتزوير
وأرى الفكاهـة جـل مـا تـأتى بـه ... رحمـاك فـى التعجـيز والتصـدير
بلغـت دعابـتك الـتى أهديـتها ... فـى خـاتم الـتأمين والـتأمير
وأظـنها للطاهـرى ، فـإن تكـن ... فجديـرة الـتقديس والـتطهير
فرسـا رهـانٍ أنـتما فـتجاريا ... بـالقول فـى الـتقديم والـتأخير
وإذا سـلكت سـبيله فحقـيقة ... كـى يتـبع التصـغير بالتصـغير
وأرى بلنسـية وأنـت قدارهـا ... سـينالها الـتدمير مـن تدمـير

وكـان ابـن عمـار شـديد التـنقص للوزيـر أبـى بكر أحمد بن محمد بن عبد العزيـز، أمـير بلنسية ، وأكثر من هجائه وهجاء أسرته ، فمن ذلك قوله يغرى أهل بلنسية بهم [3] :

---

(1) الذخيرة ٢ / ١ / ص ٤١٠ .

(2) الذخيرة ٢ / ١ / ص ٤١٠

(3) نفسه ٢ / ١ / ص ٤١١ - ٤١٢ ، الحلة السيراء ٢ / ص ١٥٥ .

بشـر بلنسـية وكانـت جـنة ... أن قـد تدلـت فـى سـواء الـنار
جازوابـنى عـبد العزيـز فـإنهم ... جـروا إلـيكم أسـوأ الأقـدار
ثـوروا بهـم مـتأولين وقلـدوا ... ملكـاً يقـوم عـلى العـدو بـثار
هـذا محمـد أو فهـذا أحمـد ... وكلاهمـا أهـل لـتلك الـدار
جـاء الوزيـر بهـا يكشـف ذيلـه ... عـن سـوءة سـوأى وعـار عـار
وأوى لينصـر مـن بـنا المثوى بـه ... ودهـاة خـذلان مـن الأنصـار
نكث اليمين وحاد عن سنن التقى ... وقضـى عـلى الإقـبال بالإدبـار
مـا كنـتم إلا كأمـة صـالح ... فـرماكم مـن طاهـر بقـدار

وعـلى نحـو مـا هجي بنو عباد ، وبنو عبد العزيز ، هجى أيضاً غيرهم مز أمراء الطوائف ، فقال عبد الملك بن حصن يهجو المأمون بن ذى النون : [1]

تلقبـت بالمـأمون ظـلماً وإنـنى ... لآمـن كلـباً حيـث لسـت مؤمـنه
حـرام علـيه أن يجـود ببشـره ... وأمـا الـندى فـاندب هـنالك مدفـنه
سطور المخازى دون أبواب قصره ... بحجابـه للقاصـدين معـنونه

ويـتأنق المنفـتل فـى هجائـه لصـاحب (لـبلة) مصـوراً إيـاه تصويراً مزري فيقول : [2]

إن ابـن يحـيى ضـحكة فتوسـم ... واذكـر بـه خـدام نـار جهـنم
أكـل الخبيـث فشـعره متسـاقط ... كالكلـب أسـقط شـعره لعـق الـدم

ويسـخط ابـن عـبدون عـلى الملوك جميعاً لأسباب ذاتية تتعلق بإهمالهم ل وعدم الاكتراث به عندما عرض عليهم بضاعته ، يقول : [3]

سـأطلب لا بألسـنة الـيراع ... سـوى ذا الحـظ مـن أيـدى الزماع
وأخـبط بالسـرى ورق الديـاجى ... ووجـه المـوت محـدور القـناع
وأمـرق مـن أسـارير المواضـى ... كمـا مـرق الهـلال مـن الشـعاع
فسـلنى عـن ملـوك الأرض تسـأل ... خـبيراً فـاقض حـق الإسـتماع

---

[1] نفح الطيب ٣ / ٣٦٣ .
[2] الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٦١ .
[3] الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٧١٢ - ٧١٣ .

عرضت عليهم نفسي ونفسي
لأوضح غبنهم عند البياع
فما اتبعوا دليلاً في اجتنابي
ولا سلكوا سبيلا في اصطناعي
كأعضاء بها ألم فقلب
على ضمد ورأس في صداع
ومن عصب إذا سئلت حراكاً
شكت بسكونها نحل النخاع
ويمنى لا تجود على شمال
ولا تصفي المودة للذراع
وعين لا تغمض عن قبيح
وأذن لا تألم من قداع
فما أبقوا ولا هموا بقيا
ونقل الطبع ليس بمستطاع
فلو سقت السماء الشرى أريا
لما احلولت مراعيه لراع
فبعتهم بتاتاً لا بثنيا
ولا شرط ولا درك ارتجاع
ولم أجعل قرابي غير بيتي
فحسبي ما تقدم من قراع

ولعل أجمل ألوان الهجاء هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس عامة ، فيصور مشاعر الغضب والسخط التى تختلج فى نفوسهم إزاء حاكم خائن أو ملك ظالم مستبد ، وكلما مال الشاعر إلى التعمية والتعميم كان هجاؤه أوقع وأقرب إلى الخلود ، فمن ذلك هذه الأبيات لأحد الشعراء ينحى فيها باللائمة على أولئك الحكام الذين عميت أبصارهم ، وافتقدوا الحزم فى تدبير شئونهم ، وتصاغروا أمام أعدائهم ، وقد نظمها صاحبها بعد خراب قرطبة ، وفيها يقول : [1]

أضعتم الحزم في تدبير أمركم
ستعلمون معاً عقبى البوار غدا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم
بكيتم بدم إن دمتم بددا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم
فألبستكم ثياباً للبلى جددا
يا أمة هتكت مستور سوءتها
ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا
في سورة الحشر آيات مفصلة
في شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا
نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة
تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت
جميعكم محنة لا تنقضي أبدا

---

[1] البيان المغرب ص ١١٠ .

ويعد (السميسر) أحد الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه تمثيلا صادقاً واسمه خلف بن فرج . من أعلام شعراء البيرة . وهو من أبرز شعراء الهجاء في الأندلس عامة . قال عنه ابن بسام : " كان باقعة عصره . وأعجوبة دهره ، له طبع حسن ، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقدح .. وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره " [1] ووصفه المقرى بأنه " كان كثير الهجاء " ، وذكر أنه ألف كتاباً سماه (شفاء الأمراض في أخذ الأغراض) [2] .

والظاهرة التي نلحظها في هجاء السميسر أنه ليس هجاء فردياً يعبر عن عن حقد ذاتي أو يستهدف تحقيق منفعة خاصة ، ولكنه هجاء " تعميمي المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع " [3] ، فهو لا يوجه هجاءه إلى حاكم بعينه ، وإنما يهاجم ملوك الطوائف عامة ، معبراً عن تسخطه وتسخط الناس جميعاً إزاء أولئك الحكام الذين شغلوا عن مصالح المسلمين بالجرى وراء مصالحهم الخاصة ، وأصبح اهتمام كل واحد منهم موزعاً بين شراب يعكف عليه ، وجارية يتعشقها ، وقينة يلذ لسماع صوتها ، وحرب يشنها على جيرانه ، وتخاذل أولئك الملوك أمام أعداء الإسلام ، وتقاعسوا عن أداء فريضة الجهاد ، فسقطت طليطلة ، وتهاوت القلاع والحصون ، وانحسر المد الإسلامي عن بعض بقاع الأندلس ، ويرتفع صوت السميسر الشاعر الغاضب داعياً إلى الثورة على أولئك الحكام المتخاذلين الذين شقوا عصا طاعة النبي وأصابوا الإسلام في صميمه ، يقول : [4]

نـــاد الملـــوك وقـــل لهـــم	مـــــاذا الـــــذى أحدثـــــتم
أســـــلمتم الإســـــلام فـــــى	أســـــر العـــــدى وقعـــــدتم

---

[1] الذخيرة ١ / ٢ ص ٨٨٢ – ٨٨٣ .

[2] نفح الطيب ٤ / ١٠٨ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤١ .

[4] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٨٥ .

وجـــب القـــيام علـــيكم ... إذ بالنصـــــارى فمـــــتم
لا تـــنكروا شـــق العصـــا ... فعصـــا النـــبى شـــقتم

وفـى أبـيات أخـرى يـتهم السميسـر أولـئك الحكـام بالخيانة ، ويشير إلى تضاؤل مكانتهم ، واهتزاز صورهم فى أعين الناس [1] .

خنـــتم فهنـــتم فكـــم أهنـــتم ... زمـــان كنـــتم بـــلا عـــيون
فأنـــتم تحـــت كـــل تحـــت ... وأنـــتم دون كـــل دون
ســـكنتم يـــا ريـــاح عـــاد ... وكـــل ريـــح إلى ســـكون

ويكثر السميسر من توجيه انتقاداته اللاذعة إلى أمراء الطوائف ، ملوحاً بما ينتظرهم من مصير مؤلم ، كقوله : [2]

رجونـــاكم فمـــا أنصـــفتمونا ... وأملـــناكم فخذلـــتمونا
سنصـــبر والزمـــان له انقـــلاب ... وأنـــتم بالإشـــارة تفهمونـــا

ويقول أيضاً : [3]

وليـــتم فمـــا أحســـنتم مذوليـــتم ... ولا صـــنتم عمـــن يصـــونكم عرضـــا
وكنـــتم سمـــاء لا يـــنال مـــنالها ... فصـرتم لـدى مـن لا يسائلكم أرضـا
ستســـترجع الأيـــام مـــا أقرضـــتكم ... ألا إنهـا تسـترجع الديـن والقرضـا

ومـا نقـرؤه مـن هجـاء السميسـر يدل على أنه كان من أكثر شعراء الأندلس غـيرة عـلى الوطـن الأندلسـى ، فهو يصدر فى هجائه عن دافع وطنى أصيل ، ويـتعدى هجـاؤه الـنظرة الذاتية أو الإقليمية إلى وجهات أعم وأشمل ، وأشد ما كـان يؤلم السميسـر أن يرى بعض حكام زمانه يصانعون أعداء الإسلام ، وتشير إحـدى الـروايات إلى موقـف للسميسـر اتسـم بالجـرأة والجسـارة إزاء (باديس ابـن حبوس) أمير غرناطة عندما استوزر وزيراً يهودياً ، ولما هلك استوزر بعده

---

(1) نفح الطيب ٤ / ص ١٨٠ .
(2) الذخيرة ١ / ١ / ٣٧٨ .
(3) نفح الطيب ٤ / ١٠٨ .

وزيرا نصرانياً فنظم السميسر أبياتاً كتب بها نسخاً عدة ورماها في شوارع البلد والطرقات وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم ابن صمادح ، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس ، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه أصحاب الخيل ففاتهم ولم يلحقوه ، يقول السميسر في هذه الأبيات :[1]

صاحب غرناطة سفيه ... وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى ... فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا ... لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً ... كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري ... إذا أتت دورة القدير

إن السميسر في اتجاهه هذا يذكرنا بالشاعر الإنجليزي *(Pope)* الذى تصور الهجاء تصوراً حسناً حين قال :[2]

استمعوا إلى هذا وارتعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء ما دبت في الحياة
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر في ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالي ضج الناس من حولي ساخطين ، أو ثنوا مادحين

لقد لفت السميسر بمقطعاته الهجائية اللاذعة أنظار بعض الباحثين فرأى أحدهم أنه يعد أكثر شعراء عصر ملوك الطوائف جرأة وجسارة ، وأنه عبر بحق عن ضمير الأمة ، وكان صوته الغاضب هو صوت الشعب بأسره[3] ويقول عنه الدكتور الطاهر مكي " وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم . وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير . فأدار ظهره لكل ما حوله ، وجاء شعره رافضاً بكل ما تعنيه الكلمة في عصرنا الحديث ، سخر مما

---

(1) معجم السفر للسلفي (مخطوط) الورقة ٢٦٥ .
(2) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٧ .
(3) مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني عشر - العدد الأول . مقال للطرابلسي أحمد أعراب بعنوان (الأصوات الحالية والإنهزامية في الشعر الأندلسي) ص ١٣٥ .

يعظم الناس ، وهجا من يمدحون ، واحتقر ما يكبرون ، وجاء هجوه لهم مفحشاً ، ونقده قاسيا ، فأهمله المؤرخون خوفاً ممن هجاهم .. كان داعية ثوره حين استطاب الناس المتع واللذة ، وخلدوا إلى الدعة والراحة وآثروا الأمن والسلامة"[1].

ويرى الدكتور إحسان عباس أن مقطعات السميسر في الهجاء تشبه أن تكون نوعاً مما يسمى في اللاتينية " الإبجرام " ***Epigram*** اللاذع المستدير سواء أقصد بها قصد الهجاء العام أو التعبير عن نظرة فلسفية "[2] .

ولم يكن هجاء السميسر لأمر الطوائف يمثل موقفاً فردياً ، ولكنه كان تجسيداً لموقف عام صدر عنه كثير من شعراء الأندلس ، وإن كان السميسر يعد أبرزهم تمثيلاً لهذا الموقف – فهناك شعراء آخرون شاركوا السميسر ثورته على أمراء الطوائف المتخاذلين ، فانطلقوا يتوعدونهم ، ويلوحون بتخاذلهم وخيانتهم للمسلمين ولاسيما بعد سقوط طليطلة بسبب مصانعة أولئك الأمراء للنصارى واتفاقهم فيما بينهم على التخاذل وإيثار القعود ، وتواطئهم على خطة زائفة عجلت بسقوط هذه المدينة العظيمة ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء بقوله :[3]

وقيل تجمعوا لفراق شكل	طليطلة تملكها الكفور
فقل في خطة فيها صغار	يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعول	على نبأ كما عمي البصير

وحين سقط ملوك الطوائف تشفى فيهم الشعراء ، وارتفعت أصواتهم معبرة عن أحاسيس الشماتة إزاء أولئك الملوك الذين طالما استمرأوا أو الفساد ، وشغلوا أنفسهم بالقصف واللهو والغناء عن الجهاد ، ولم يفكروا فيما ينتظرهم من نهاية

---

[1] دراسة أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ص ٧٤ .
[2] تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢٩ .
[3] نفح الطيب ٦ / ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

أليمة ، ويعبر أبو الحسن بن الجد عن هذه المعاني مصوراً ملوك الطوائف تصويراً مزرياً ، فيقول [1]

في كل يوم غريب فيه معتبر ... نلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح ... يحدو به ملهياه : الناي والوتر
صمت مسامعه في غير نعمته ... فما تمر به الآيات والسور
تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور

وعندما جاء المرابطون لم يتعاطف معهم الأندلسيون ، ونظروا إليهم على اعتبار أنهم دخلاء اقتحموا بلادهم واستمتعوا بخيراتها ، وخلق حكمهم الأندلس أوضاعاً جديدة أثارت غضب الأندلسيين وتمثلت هذه الأوضاع في استئثار المرابطين بالوظائف والمناصب الهامة ، وافتئاتهم على السكان ، وتمتعهم بنفوذ خاص ، حتى بات من العسير أن يحاسب المرابطي في عمله ، أو ينكر عليه شيء في الخطة التي وليها [2] . كما اشترط المرابطون أن كل من يلثم يجب أن يكون صنهاجياً أو لمتونياً أو لمطياً ، أما من هم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيبون على الناس ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام وهماً [3] . واضطربت أحوال الأندلس في أواخر حكم المرابطين ، وأشار إلى ذلك المراكشي فقال [4] : " فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ".

---

[1] أعمال الاعلام ص ٢٤١ .
[2] ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة لابن عبدون التجيبي ص ١٦ .
[3] نفسه ص ٢٨ .
[4] المعجب ص ٢٧٧ .

يضاف إلى بواعث هجاء المرابطين باعث آخر على جانب كبير من الأهمية، ونعنى به موقف المرابطين من الشعر ، فقد تقهقرت مكانة الشاعر فى عهدهم " وأصبح التصريح بكساد الشعر أشد وأوضح - ذلك أن الشاعر حتى فى أسمى ما غدا يستطيع بلوغه من مكانه لم يعد فى طوقه منافسة رجل السيف (وهو من الملثمين) والفقيه والكاتب ، ولعل الأعمى التطيلى قد عبر فى بعض لحظات الإحساس بالتعاسة عن هذا المعنى بأجلى عبارة حين قال " إنَّ قال مالك " قد طردت " قام زيد " أى أن الفقه قد أبعد الأدب واللغة ، وأصبحت الكلمة العليا للفقهاء [1] يقول التطيلى معبراً عن هذه الأحاسيس : [2]

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه ... على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثُلَّت عروشهم ... فلا الفخر مختال ولا العز تامك
إذا ابتدر الناس الحظوظ وأشرفت ... مطالب قوم وهى سود حوالك
رأيتهم لو كان عندك مدفع ... كما كسدت خلف الرئال الترائك
فيادولة الضيم اجملى أو تجاملى ... فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضى أو تعارضى ... فقد حال من دون المنى " قال مالك"

ويعبر ابن بقى عن هذا الإحساس بالخمول وضآلة الشأن مصرحاً بكساد العلم والشعر فى دولة المرابطين فيقول : [3]

أقمت فيكم على الإقتار والعدم ... لو كنت حراً أبى النفس لم أقم
فلا حديقتكم يجنى لها ثمر ... ولا سماؤكم تنهلُّ بالديم
أنا امرؤ إن نبت بى أرض أندلس ... جنت العراق فقامت بى على قدم
ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفت ... وحرفة وكلت بالقعدد البرم

وقد اشتهر بهجاء المرابطين شاعران هما ابن سهل اليكى والأبيض . أما اليكى فقد حمل عليهم حملة شديدة ، فوصفهم بالدناءة والخسة ، ورماهم بأبشع الصفات كقوله : [4]

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - ص ٩٠ .

(2) المرجع السابق ص ٩٠ .

(3) نفح الطيب ٤ / ٤١٠ .

(4) المغرب ٢ ٢٦٧ .

فـى كـل مـن ربـط اللـثام دنـاءة | ولوانـــه يعلـــو عـــلى كـــيوان
مـا الفخـر عـندهم سـوى أن يـنقلوا | مــن بطــن زانـية لظهـر حصـان
المنـــتمون لحمـــير لكـــنهم | وضـعوا القـرون مواضـع التـيجان
لا تطلـــبن مـــرابطاً ذا عفـــة | واطلـب شـعاع الـنار فـى الغـدران

وفـى قصيدة أخرى يعرض اليكى ببخل المرابطين ويتندر باستخدامهم اللثام فيرى أنهم اضطروا إلى ذلك لإخفاء وجوههم مما يرتكبون من أفعال قبيحة [١] .

إن المـــرابط يـــاخل بـــنواله | لكـــــنه بعـــــياله يـــــتكرم
الوجــه مــنه مخلــق بقبـيح مــا | يأتـــيه فهـــو مـــن اجلـــه يتلـثم

ويصفهم اليكى بالجبن ويعرض بهم فيقول : [٢]

إن المـــرابط لا يكـــون مـــرابطاً | حـــتى تـــراه إذا تـــراه جـــبانا
تجلـو الرعـية مــن مخافـة جـوره | لجلائـــه إذ يلـــتقى الأقـــرانا
إن تظـــلمونا ننتصـــف لنفوســـنا | يجـنى الـرجال فـنأخذ النسـوانا

ويهـاجم أحـد حكـام المـرابطين واصـفاً إيـاه بالعجـز عن تسيير دفة الحكم وبالضعف فى مواجهة الثوار والمنشقين فيقول : [٣]

عـلىُّ حمـى الملـك مـن ساسـة | ومـــا أنـــت لـــلملك بالســـائس
من السـوس أصبحت تخش النفاق | وقـد جـاءك الـنحس مـن بـادس

أما أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بالأبيض ، فقد وقف هجاءه علـى الـزبير بـن عمر اللمتونى أمير قرطبة وغرناطة على عهد المرابطين ، وولع بهجائـه حسـبما يقـول ابـن سـعيد [٤] ويـبدو أن عـداء الأبيض لهذا الأمير كان ناجمـاً عـن بعـض التصـرفات السـلوكية التى لم تعجبه فى شخصه فهو يتهمه

---

[١] نفح الطيب ٣ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
[٢] المغرب ٢ / ٢٦٨ .
[٣] نفسه ٢ / ٢٦٨
[٤] المغرب ٢ / ١٢٧ .

بالغى والعكوف على اللهو والانهماك فى الخلاعة والمجون ، كما يبدو فى قوله : [1]

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهور كلب النار
مازال يأخذ سجدة فى سجدة بين القيان ونغمة الأوتار
فإذا اعتراه السهو سبح خلفه صوت القيان ورنة المزمار

وتتكرر هذه المعانى فى قصيدة أخرى مشيراً إلى أن انغماسه فى الخمر والقصف أضاع الجيش وأودى ببيت المال [2]

يا سائلى عن زبير أين مسكنه هيهات تطلب شمساً ما لها وضح
لا تطلبن زبيراً فى مساكنه واسأل عرابة عنه حين يصطبح
نشوان يكرع فى فرج وفى قدح والملك تحت لبان العود مطرح
يا ضيعة الجيش لن يبقى لهم سبد أودى السماع ببيت المال والقدح

ويقول أيضاً فى هجائه : [3]

أما زبير فقد أودى بأندلس ما كان من حرمة فيها وصديق
وصده عن قراع الدارعين بها قرع القواقير أفواه الأباريق

ويفحش الأبيض فى هجائه للزبير مركزاً على عيب خلقى فيه إذ كان مصاباً بالبرص ، فيقول : [4]

قالوا الزبير مبرص فأجبتهم لا تعذلوه ، فداؤه من عنده
رضعت مباعره الأيور فأكثرت حتى بدا وسم المنى بجلده

وهذه الصورة القاتمة التى رسمها الأبيض للزبير تتعارض مع صورته فى نظر المؤرخين ، فصاحب الإحاطة يصفه بأنه " ندرة الزمان كرماً وبسالة وحزماً

---

(1) نفح الطيب ٣ / ٤٨٩ .
(2) خريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .
(3) زاد المسافر ص ١١٢ .
(4) نفسه ص ١١٢ .

وأصالة " [1] وتشير إحدى الروايات إلى مشاركته فى المعارك حتى قيل إنه قتل فى إحدى هذه المعارك سنة ٥٣٧هـ فى موضع يقال له " وادى الدروع " . [2]

ونستبعد إرجاع هجاء الأبيض للزبير إلى الدوافع المادية لأن ثمة رواية يعزو فيها الأبيض هجاءه إلى ما رآه فى شخص الزبير من تصرفات شائنة ، فيقال إن الزبير لما بلغه هجاء الأبيض له أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى لم أر أحق بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله [3].

وهذه الرواية تنفى الدافع المادى أو المصلحة الذاتية وإن ظل التناقض قائماً بين رأى الأبيض فى الزبير ورأى المؤرخين الآخرين فيه .

وقد شارك النثر فى هجاء المرابطين ، ويحتفظ المراكشى بجزء من رسالة لأبى مروان بن أبى الخصال يذم فيها المرابطين لتقاعسهم عن قتال الأعداء فمن ذلك قوله : " أي بني اللئيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ، ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهّر الجزيرة من رحضائكم " [4].

وإذا تركنا عصر المرابطين إلى عصر الموحدين ، فإن أكثر الظواهر وضوحاً هى خضوع الهجاء السياسى للتوجيه الرسمى ، فالخليفة عبد المؤمن بن على يمتحن شعراءه بهجاء أحد الوزراء عندما أمر بسجنه [5] ، وعندما ثار المأمون الموحدى على فكرة الإمامة التى قامت عليها الدولة ، وسخر من دعوة المهدى

---

[1] الإحاطة ١ / ٤٥٠ .

[2] خريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .

[3] نفح الطيب ٣ / ٤٩٠ .

[4] المعجب ص ١١٤ .

[5] نفح الطيب ٥ / ١٨٦ .

ابـن تومـرت المؤسس الروحي للدولة ، الذى زعم أنه المهدى الذى يملأ الأرض قسـطاً وعـدلا كمـا ملئـت جـوراً وظـلماً ، نجد بعض الشعراء يسخرون من هذه الدعـوة ويـنكرونها ويعرضـون بصـاحبها خضـوعاً لرغـبَة المـأمون مع أنهم طالما امـتدحوا المهـدى وأشادوا بدعوته حين كان الخلفاء السابقون يميلون إلى ذلك ، فمن أمثلة التعريض بالمهدى ودعوته قول أحد الشعراء : [1]

وجـد النـبوة حلـة مطويـة لا يسـتطيع الخلـق نسـج مـثالها
فأسـرحـوا فـى ارتقـاء يبتغى بمحالـه نسـجاً عـلى مـنوالها

وعـندما نشـبت الفتن بين أمراء البيت الموحدى فى أواخر خلافة الموحدين اتجه كل منهم إلى تكليف من يشايعه من الشعراء بهجاء منافسيه ، ففى الفتنة الـتى تشـبت بـين المـأمون وأخيه يحيى الناصر انقسم الشعراء فريقين ، فانضم فـريق مـنهم إلى جانـب المأمون ، وانحاز الفريق الآخر إلى جانب يحيى الناصر ودارت معركة هجائية بين الطرفين ، وعندما نظم أحد شعراء المشايعين للمأمون قصيدة يؤيد فيها بيعته ويعرض بأخيه أمر يحيى شعراءه أن يردوا عليها ، فرد عـليها ابـن الصـفار بقصيدة يعرض فيها بالمأمون الذى صانع النصارى واستعان بهم فى حربه ضد أخيه ، وفيها يقول : [2]

يحـيى خلـيفة رب العـالمين ومـن يجهلـه يعلمه حـظ السُّمر والقُضُب
نـال الخلافـة عـن خُـبرٍ وعـن خَـبَرٍ محقـق وبـإرثٍ عـن أخٍ وأب
لم ينتصـر بالنصـارى والـبغاة عـلى مطهَّـرين مـن الأدنـاس والريـب

وعـلى هذا النحو خضع شعراء الموحدين فى هجائهم لتوجيه الحكام ، ولم نسـمع فـى ذلـك العصـر أصواتاً غاضبة تهاجم أمراء الموحدين وتندد بسياستهم عـلى الـنحو الذى رأيناه فى عصر المرابطين ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى اخـتلاف طبـيعة حكـم المـرابطين عـن الموحديـن ، فبيـنما ضيق المرابطون على

---

[1] أزهار الرياض ٢ / ٣٧٩ .
[2] البيان المغرب ٣ / ٢٦٢ (ط . قطوان) .

الشعراء وأهملوا قدرهم ، جاء الموحدون فأعلوا منزلتهم ، وتنافسوا فى تقربهم ، وكان يهتزون للشعر ويثيبون عليه [1] وظهر من بينهم شعراء مثل الأمير أبى الربيع سليمان بن عبد المؤمن ، وفى ولايته جمع حوله أهل الأدب ؛ وكان جواداً لمن يتعلق به بأدنى سبب يجب رعيه . [2] فانتفت بذلك البواعث المادية التى حفزت بعض الشعراء إلى هجاء الحكام ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية تشير إلى أن الموحدين " كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بالأندلس باعتباره دار جهاد ، ولذلك فلعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن المجتمع الأندلسى تمتع فى هذا العصر إلى حد ما بالاستقرار والأمن ، ونستطيع أن نرى فى الرسائل الموحدية الرسمية شيئاً من هذا الاهتمام فكانت الكتب تنفذ بانتظام إلى ولاة الأندلس ، وفيها يوصى الخلفاء بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وألا يقضى الولاة فى أحكام القتل من تلقاء أنفسهم إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل وكذلك فى سائر المعاملات والأموال ، فلا يبت فى أمرها إلا بعد التثبت والمطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة [3] وتشير رواية أخرى إلى أن أحد خلفاء الموحدين انتصر لأحد الشعراء على بعض عماله ، فمن الطبيعى إذاً أن ينكمش هجاء الحكام فى عصر الموحدين .

وقد تضاءل هجاء الملوك والحكام أيضاً فى العصر الغرناطى وذلك بسبب الظروف التى طرأت على الأندلس ولاسيما بعد أن تساقطت المدن الأندلسية خلا غرناطة وبعض الحصون ، وشغل الأندلسيون بالتأقلم مع هذه الأوضاع الجديدة ، ولم يعد المناخ مهيأ لاستمرار هذا اللون من الهجاء .

---

[1] المعجب ص ٢٩٣ .
[2] الغصون اليانعة ص ١٣١ .
[3] الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٤١ .

الهجاء القبلى :

كان العنصر العربى الذى استقر فى الأندلس بعد الفتح ينتمى إلى قبائل عربية عديدة ، وانتشر النازحون من هذه القبائل فى شتى بقاع الأندلس ، فاستقرت لخم فى الجزيرة الخضراء وإشبيلية وكان منهم بنو عباد ، وأقام بنو صخر من غطفان بناحية قرمونة ، وبنو مرة بإلبيرة ، وبنو منذر بن الحارث من ثقيف بباجة ، وبنو عقيل بجيّان ووادى آش ، وخثعم وهمدان بإلبيرة وعنس بجهة قلعة يحصب ، وخولان بقرطبة ، والمعافر ببلنسيه وجهان وجذام بشذونة وتدمير ، وهوازن بالقرب من إشبيلية ، وبلى فى شمال قرطبة ، وبنو عذرة بجيان وسرقسطة .[1]

وانتقلت العصبية القبلية إلى الأندلس مع طلائع العرب الفاتحين الذين وفدوا من المشرق ، وظهر النزاع من جديد بين القيسية واليمنية .

يقول لين بول ***Lane - Poole*** " ما كادت موجات الفتوحات العربية تهدأ ويستقر سلطان المسلمين بالأندلس حتى تيقظت فيهم روح العصبية القبلية عاتية مدمرة مما أسلم البلاد إلى طوفان من الفوضى والإنحلال "[2] وبلغت هذه العصبية ذروتها فى عصر الولاة ، وكان كل وال يتعصب لبنى جلدته ، فحين تولى أبو الخطار الحكم انحاز لقومه اليمنيين ضد القيسيين لاسيما وقد كانت له ترات قديمة " منها أنه كان هو ذاته ضحية ظلمهم فى إفريقية ومنها قتلهم واحداً من أعظم رجال قبيلته فى الأندلس وهو سعيد بن حواس ."[3]

وقد أغلظ الخطار فى معاملة القيسية لاسيما بعد مقتل ابن حواس الذى يقول عنه .[4]

فليت ابن حواس يخبر أننى ... سعيت به سعى امرىء غير غافل

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر سيادة قرطبة ص ١٤ .
[2] The Moors in Spain By Stanly Lann – Pool, 51, London, 1920 .
[3] تاريخ مسلمى أسبانيا – الحرب الأهلية – ص ١٦٨ .
[4] تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٨ .

قتلت به تسعين يحسب أنهم جذوع نخيل صرعت بالمسائل

وأمعن الخطار في إهانة القيسيين حتى لقد طرد الصميل بن حاتم أحد شيوخ القيسية من قصره فانصرف الصميل غاضباً وغادر القصر مائل العمامة فلقيه رجل عند الباب فسأله " يا أبا جوشن ما بال عمامتك مائلة " فأجابه الشيخ القيسي : " إن كان لى قوم فسيقيمونها " [1]

وجمعت القيسية جموعها بعد أن تحالفت مع الجذاميين واللخميين وتقابلوا مع الكلبيين في " وادى لكة " سنة ١٢٧هـ وانتهت المعركة بهزيمة الكلبيين ووقوع ابن الخطار في الأسر . [2]

ودارت رحى الحرب مرة أخرى بين الفريقين حين حاول الكلبيون الثأر من القيسية وأمروا عليهم يحيى بن حريث الذى كان يكره الشاميين كرهاً شديداً وكان يقول " لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها حتى الثمالة " ولكن الكلبيين منوا بالهزيمة مرة أخرى ، وقال الصميل ليحيى بن حريث معرضاً به – وقد سيق إلى الموت بعد هزيمته : " يا ابن السوداء هل بقى فى قدحك شيء لم تشربه ؟ ! " [3]

وظلت العصبيات القبلية محتدمة في الأندلس حتى جاء عبد الرحمن الداخل فانتهج سياسة جديدة للقضاء على هذه العصبيات وذلك بالإكثار من شراء العبيد وإلحاقهم بديوان الجند ، كما جلب من إفريقية أعداداً كبيرة من البربر .

ومن هذا العرض يتضح أن العصبية القبلية لم تشتعل إلا فى العصور الأولى في الأندلس ثم خمدت بعد ذلك لانصهار عناصر السكان من العرب فى بوتقة

---

[1] تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٨ .

[2] نفسه ص ١٧٣ .

[3] أخبار مجموعة ص ٥٩ – ٦٠ .

واحدة ولظهور الإحساس بالانتماء إلى الوطن الأندلس ، وتأصل النزعة الأندلسية الأصيلة في نفوس الأندلسيين .

وبرغم ندرة شعر الهجاء الذى يصور هذه العصبيات القبلية إلا أن هذا لا يمنع من افتراض ازدهار الهجاء القبلى فى تلك العصور الأولى ، لا سيما وأن الروايات تشير إلى أن كل شيخ من شيوخ العرب فى الأندلس كان له شاعره الخاص [1]. كما كان بعض شيوخ العرب وقادتهم ينظمون الشعر ، وثمة رواية تقول إن الصميل نظم قصيدة يعبر فيها عن غضبه من اليمنيين ورغبته فى الانتقام منهم ولكن لم يصلنا منها غير هذا البيت : [2]

ألا إن مالي عند طي وديعة ولابد يوماً أن ترد الودائع

واشتهر بالهجاء القبلى فى عهد الولاة أبو الأجرب جعونة بن الصمة الكلابى وكان من الطارئين الأوائل ، كما كان فارساً شجاعاً ، ولم يكن يقيم فى مكان معين وإنما كان ينتقل فى النواحي ويحل أكناف قرطبة ، وقد هجا الصميل بن حاتم القيسى ، ويشير ابن حزم إلى أن منزلته فى الهجاء لم تقل عن منزلة جرير والفرزدق . [3]

ويعكس الهجاء القبلى بعض الصراعات والفتن التى احتدمت من أجل الاستئثار بالحكم أو الخلافة ، ففى عهد المستنصر بالله خرج حسن بن قنون القرشى عن الدعوة ، وزعم بأحقيته فى الخلافة لانتسابه لقريش ، وقد هجاه محمد بن شخيص شاعر المستنصر فقال : [4]

كيف يرجى بأن يوفى قريشاً حقها وهو من قريش نقى
قدمته الطغام أن قال جدى حسني وليته حسنى
فيرى فى أمية ما رآه حسن الفاضل التقى الرضى

---

[1] تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٩ .

[2] تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٢ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة - ص ٤٤ .

[4] المقتبس ، (تحقيق عبد الرحمن حجى) ص ٨٥ .

كما هجاه وأشياعه بقصيدة أخرى قال فيها :[1]

عصابة تدعى فى هاشم نسباً ... وما يصح لها فى معشر نسب
عمى البصائر لم يسلس معاطفها ... إلى مساعى التقى دين ولا حسب
وزادها فى عماها أن أولها ... ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش فى دهماء ليس لها ... فى غير حسو الحسى رأى ولا أرب
ولو غدت من قريش فى ذوائبها ... لأوجبت نفيها الأحداث والريب
وكل ملتهب يطفا وشرهم ... من بعد عثمان يطفا ثم يلتهب
إذا غدا حسن فى الآل من حسن ... رأساً فياليت شعرى أيما الذنب

وهذه الأمثلة التى عرضناها تشير إلى أن الهجاء القبلى كان قريب الشبه من الهجاء المشرقى فى معانيه وأساليبه وصوره .

[1] نفسه ص ١٥٩ ، ١٦٠

هجاء البربر :

كان البربر يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر السكان فى الأندلس بعد أن شاركوا مشاركة فعلية فى فتح الأندلس ، بل إن الحملة الأولى كانت مؤلفة من البربر فقط كما يذكر ليفى بروفنسال [1] ، ولم يدخل العنصر العربى الأندلس إلا عندما قدم إليها موسى بن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية [2] . ولكن البربر أخذوا يتدفقون من المغرب نحو جزيرة الأندلس فى موجات كبيرة حتى صاروا يشكلون طبقة كبيرة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن عبد الرحمن الداخل استقدم أعداداً كبيرة من البربر لتثبيت دعائم ملكه ولإخضاع العناصر العربية المتصارعة ، غير أن وجود البربر بجانب العرب فى الأندلس أدى إلى نشوب فتن كثيرة بين الفريقين لاسيما فى عصر الولاة ، وكان كل فريق يؤمن بأحقيته فى السيادة على الأندلس ، فالبربر يفخرون بأن طارق ابن زياد فاتح الأندلس ينتمى إلى جنسهم ، ويتباهون بأن الفتح لم يتحقق إلا على أيديهم بينما يؤمن العرب بأنهم هم الفاتحون الحقيقيون للأندلس .

وكانت الفتن بين العرب والبربر تهدأ أحياناً ثم تعود للظهور من جديد واستفحل خطر البربر فى فترات كثيرة ، حتى لقد وجدت بيئات بربرية بأكملها ؛ ففى عصر ملوك الطوائف استأثر البربر بحكم غرناطة فتحولت فى عهد بنى زيرى (٤٠٣هـ - ٤٨٣هـ) إلى جزيرة بربرية تطوّقها بحار من العداوة العربية على حد تعبير جارثيا جومث [3].

ولم يترك ملوك البربر الذين حكموا غرناطة أثراً طيباً فى نفوس المؤرخين أو الأدباء ، فهم " لم يشيدوا ، فيما يبدو ، غير سور متين ، لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكدسوا الأموال التى استولى

---

(1) Levi - Provencal ; Histoire de l'Espagne mustmane Pairs 1950 - 1953. P 40
(نقلاً عن الركابى . فى الأدب الأندلسى ص ٣٤) .

(2) فى الأدب الأندلسى للركابى ص ٣٤ .

(3) مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ١١٨ .

عليها المرابطون فيما بعد ، وامتد الجدب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفى بلد يرتوى بالشعر ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة طوال القرن الحادى عشر الميلادى ، خارج المهابط التى يتردد عليها الشعراء ولم يحدث أبداً أن أياً من كبار الشعراء خارجها ، فكر أن يرتحل إليها ليمدح عبثاً أمراءها البربر أو وزراءها اليهود " [1].

وقد أكثر الشعراء من هجاء البربر ، فرموهم بكل منقصة ، وعيروهم بمثالب الجنس ، فمن ذلك قول السميسر : [2]

رأيت آدم فى نومى فقلت له ... أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال إذاً ... حواء طالقة إن كان ما زعموا

ويقول شاعر آخر معبراً عما يضمره فى قلبه من كراهية وحقد إزاء البربر[3].

هم البرابر لا ترجوا نوالهم ... وسل من الله تعجيل النوى لهم
لا بلغ الله قلباً منهم أملا ... وبلغ الله قلبى ما نوى لهم

ويعرض هذا الشاعر بما يجرى على ألسنة البربر من مخاطبة الله سبحانه بقولهم (أبابا ربى) فيقول : [4]

فلو كنت فى الفردوس جاراً لبربر ... لحولت رحلى من نعيم إلى سقر
يقولون للرحمن (بابا) بجهلهم ... ومن قال للرحمن (بابا) فقد كفر

وقد ردُّ عليه أحد شعراء البربر بقصيدة قال فيها : [5]

كفى بك جهلا أن تحن إلى سقرْ ... بديلا عن الفردوس فى شر مستقر
وتجهل معنى مستبيناً مجازه ... لدى كل ذى فهم سليم وذى نظر
فإن أبا الإنسان يدعوه أنه ... كفيل وقيوم رحيم به وبر

---

(1) المرجع السابق ص ١١٩ .
(2) نفح الطيب ٣ / ٤١٢ .
(3) أدب الفقهاء ص ١٧٣ .
(4) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(5) أدب الفقهاء ص ١٧٤ .

ومن قال للرحمن (بابا) فقد عنى		به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى إننى ذاهب إلى		أبى وأبيكم جاء ذلك فى الأثر

وفى هجاء البربر صدر كثير من الشعراء عن موقف سياسى على نحو ما نرى عند (ابن حربون) شاعر الخلافة الموحدية ، الذى يصفهم بـ " الرعاع " ويشيد بموقف الموحدين منهم عندما قادوا حركة عصيان ، وأشعلوا فتنة فى جهة جبل (تاسررت) سنة ٥٦٣هـ فتصدى لهم الموحدون وأخمدوا فتنتهم ، وقتلوا منهم كثيرين ، وأجلوهم عن تلك الأماكن ، وفى ذلك يقول ابن حربون : [١]

وماذا تؤمل هذى الرعاع		وأنى لها عنكم مهرب
ستبرأ منهم إليك الشعاب		ويسلمها البازل الأصهب
لقد ركبوا مركب الجاهلين		وذلك من شر ما يركب
فمزقتم شملهم فى البلاد		كأنهم جمل أجرب

وهجا ابن حربون البربر مرة أخرى عندما أضرموا فتنة أخرى فى جبال غمارة المتصلة بسبتة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٢هـ ، وتزعم هذه الفتنة ثائر بربرى يدعى (سعد بن منعفاد) انشق عن طاعة الموحدين ، وأخذ يقطع الطرق ويبث الرعب فى قلوب الناس واستفحل أمره حتى تحرك الخليفة إليه بنفسه وتمكن من قتله وإخماد فتنته ، وفى ذلك يقول ابن حربون . [٢]

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة		تاهت بهم فى جور ليل أليل
واستعجلوا أمر الإله فجاءهم		والويل كل الويل للمستعجل
فغدا غوييهم برأس منيفة		يهوى إلى درك الجحيم الأسفل

ويتكىء ابن أغلب الخولانى المعروف بالزوالى فى هجائه لأحد البرابرة المنشقين بقفصة على المعانى الدينية ملوحاً بما جاء فى سورة (المسد) من

---

[١] المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .
[٢] البيان المغرب (ط. تطوان) ٣ / ٧٠ وما بعدها .

تصوير لأبى لهب وامرأته رابطاً بين هذه الصورة من ناحية وبين ما كان عليه هذا الشقي ومدينته (قفصة) من غواية فيقول : [1]

سائل بقفصة هل كان الشقي لها	بعلا فكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافر بالله ألهبها	فكان كالكافر الأشقى أبى لهب
لما زنت وهى تحت الأمر محصنة	رجمتموها اتباع الشرع بالحصب

وربما كان ابن سهل اليكى أكثر شعراء الأندلس هجاء للبربر ، وإن كان قد صدر فى هجائه لهم عن بواعث ذاتية ، فقد أفرط فى هجاء أهل فاس لما لقيه فيها من جفوة وخشونة وسوء معاملة ، ولذلك فقد وصمهم بكل منقصة ، ورماهم بالكذب والسرقة والزنا واللواط ، وأفحش فى هجائهم كقوله : [2]

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم	فاصبحت فيكم الآراء متفقة
كل امرىء منكم قد حاز منقصة	بها أحاط كدور العين بالحدقة
وربما اجتمعت فى بعض سادتكم	نقائص أصبحت فى الناس مفترقة
كالقرن والقود المشهور والكذب ال	معروف والخلة الشنعاء والسرقة
فلا تهابن فاسياً مررت به	وإن تقل فيه خيراً حول الورقة
والعنه شيخاً وكهلاً واجفه حدثاً	و(....) [3] طفلا ولو ألفيته علقه
فلا سقى الله فاساً صوب غادية	نعم ولا اخضر فى أرجائها ورقة

ولم ينج أحد من أهل فاس من لسان اليكى – حتى الطفل الصغير –[4] :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه	درى أنها مخلوقة للفياشل

ويهجو ابن ملجوم أحد أعيان فاس وأصلائها فيقول : [5]

وما سمى الملجوم إلا لعلة	وهل تلجم الأفراس إلا لتركبا

---

[1] زاد المسافر ص ١٣٥ .

[2] نفسه ص ١٢١ .

[3] حذفنا الكلمة الصريحة وهى بصيغة فعل الأمر .

[4] زاد المسافر ص ١٢١ .

[5] المغرب ٢ / ٢٦٧ .

ويعرض اليكي ببخل أثرياء فاس وتقتيرهم فيقول [1]

قصدت جلة فاس أسترزق الله فيهم
فما تيسر منهم دفعته لبنيهم

ويذكر المقرى أن اليكي عندما أفرط في هجاء أهل فاس تعسفوا عليه وساعدهم واليهم مظفر الخصي من قبل علي بن يوسف ، والقائد عبد الله بن خيار الجياني ، فقدموا رجلا ادعى عليه بدين وشهد عليه رجل فقيه يعرف بالزناتي ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه ، وسيق سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه وكتب فيها : [2]

أرشو الزناتي الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفراً ذو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما .... [3] عبد الله عرس أبي الحسين

ومن الطريف أن بعض شعراء البربر شاركوا شعراء الأندلس في هجاء البربر، على شاكلة أبي العباس الجراوى — وهو من أكبر شعراء المغرب — فقد هجا قبيلته — بني غفجوم — واستطرد إلى هجاء أهل فاس وقاضيهم ابن ملجوم على نحو ما صنع اليكي فقال : [4]

يا ابن السبيل إذا نزلت بتادلا [5] لا تنزلن على بني غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى إلا مجاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم لكنهم نشروا لواء اللوم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم إلا الصياح بدعوة المظلوم
لا حظ في أموالهم ونوالهم للسائل العافي ولا المحروم
يا ليتني من غيرهم ولو انني من أرض فاس من بني الملجوم

---

[1] زاد المسافر ص ١٢٢ .
[2] نفح الطيب ٣ / ٣٢٤ .
[3] حذفنا الكلمة الصريحة وهي بصيغة الماضي المفرد
[4] أزهار الرياض ٢ / ٣٦٥ .
[5] تادلا : من جبال البربر تقع قرب فاس وتلمسان .

فـأبو العباس الجراوى – وهو شاعر بربرى – لم يتصد للدفاع عن قومه ولم يرد هجاء الأندلسيين لهم وهو ما كانت تفرضه طبيعة انتمائه وعصبيته لقومه ، ولكـنه شـارك الأندلسـيين فـى الهجـوم عـلى قومـه ، ورمـاهم كما فعل شعراء الأندلـس بالـبخل والجبن ولؤم الطباع وغير ذلك من الصفات القبيحة ، وركب الجـراوى طـريقة الجاهلـيين فـى الهجـاء من إحكام النسج ، وإتقان الصنعة ، وتـرديد المعـانى القديمـة – كالعجز عن حماية الذمار والنساء ، والصياح بدعوة المظلوم – فجاء هجاؤه أقرب إلى الهجاء الجاهلى .

ويمكـن أن نفسـر موقـف الجـراوى مـن زاويـتين : الأولى هـى خفـة حـدة التعصـب القبـلى عـنده ، أما الثانية فربما تتصل بدوافع ذاتية نجمت عما رآه الجراوى من صفات مستهجنة فى بعض أبناء قومه .

ومهمـا يكن من أمر ، فإن هجاء الأندلسيين للبربر سار فى اتجاهين ، كان أحدهمـا انطلاقـاً مـن دوافـع ذاتية ، أما الآخر فكان تعبيراً عن موقف سياسى ونتاجاً لعصبية قبلية تأصلت فى نفوس بعض الشعراء .

رسالة الشقندى :

تعد رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس انعكاساً لنزعة العصبية والتنافس بين الأندلسيين والمغاربة أو بين الأندلس وبر العدوة ، وقد كتب الشقندى رسالته إثر معركة كلامية حامية نشبت بينه وبين أبى يحيى ابن المعلم الطنجى حول المفاضلة بين بلديهما فكانت رسالة الشقندى التى أشاد فيها بمآثر الأندلس وعرض فيها بأبى يحيى فقال [1] : " أما بعد ، فإن حرك منى ساكناً وملأ منى فارغاً ، فخرجت عن سجيتى فى الإغضاء ، مكرهاً إلى الحمية والإباء ، منازع فى فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ، ويأتى بما لا تقبله النواظر والأسماع . إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يضله من تاه فى تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العدوة على بر الأندلس ، فرام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول الليل أضوأ من النهار ، فياعجباً كيف قابل العوالى بالزجاج ، وصادم الصفاة بالزجاج ، فيا من نفخ فى غير ضرم ورام صيد البزاة بالرخم ، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً ، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً ، ما هذه المباهتة التى لا تجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز . سل العيون إلى وجه من تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغى ؟

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم

وتأخذ الرسالة شكل المناظرة ، ويشرع الشقندى فى الرد على أقوال أبى يحيى مظهراً تفوق الأندلسيين على المغاربة فى شتى المجالات ، ويبدأ بالرد على ما ذهب إليه أبو يحيى من الفخر بملوك المغرب فيقول : " أما قولك الملوك منا " فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسَر

---

[1] نفح الطيب ٣ / ١٨٦ .

" إن كـان الآن كرسى جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن ، أدامهـا الله تعـالى ، فقـد كـان عـندنا بخلافـة القرشيين " . ويتباهى الشقندى بمآثـر ملـوك الأندلـس ، كالمنصور ابن أبى عامر " الذى بلغ فى بلاد النصارى غازيـاً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً فى بلادهم من المسلمين ، ولم يبرح فـى جـيش الهـرقل وعـزمة الإسـكندر " ،ويفخر بملوك الطوائف الذين " نفقوا سـوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم ويخص منهم بنى عباد " فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقم به بـنو حمـدان فى حلب " ، ويعرض الشقندى بملوك البربر السابقين على ملوك الموحدين فيقول : " وبالله إلا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، أبسـقون الحاجـب ؟ أم بصـالح الـبرغواطى ، أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسـط ابـن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ؟

ويسخر الشقندى من جهل يوسف بن تاشفين باللغة وافتقاده إلى فهم الشعر والإحسـاس بـه فيشـير إلى أن المعتمد قال له وقد أنشده الشعراء : " أيعلم أمير المسـلمين مـا قـالوه ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبر ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنـتم وبـنا فمـا ابتلـت جوانحـنا	شـوقاً إلـيكم ولا جفـت مآقيـنا
حالـت لفقدكـم أيامـنا فغـدت	سـوداً وكانـت بكـم بيضـاً ليالـينا

فـلما قـرىء علـيه هـذان البيـتان قـال للقـارىء : يطلـب منا جوارى سوداً وبيضـاً؟ قال : لا يا مولانا . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن لـيالى السـرور بـيض ، فعـاد نهاره ببعده ليلاً لأن أيام الحزن ليال سود ، فقـال : والله جـيد ، اكتب له فى جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده ! " [1]

---

[1] نفح الطيب ٣ ١٩١ ١٩٢ .

وينتقل الشقندى إلى المفاخرة بعلماء الأندلس الذين برعوا فى الفقه واللغة والأدب وعلم النجوم والفلسفة وغيرها جارياً على طريقته فى الحوار والمناظرة كقوله : " وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبد الملك بن حبيب .. ومثل أبى الوليد الباجى ؟ "

" وهل لكم فى النحو مثل أبى محمد بن السيد وتصانيفه .. وهل لكم فى علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل .. ومثل بنى زهر .. وهل لكم فى علم التاريخ كابن حيان صاحب " المتين " و " المقتبس " .. وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمية ، والاجتهاد فى حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب "الذخيرة" ؟ وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة فى البيت الفارغ".

ويكثر الشقندى من الوقوف عند شعراء الأندلس مفتخراً بإجادتهم فى فنون الشعر ، ومدللاً على براعتهم فى الوصف والتخيل ، ويقول مخاطباً أبا يحيى مشيراً إلى ضآلة منزلة شعراء المغرب بالقياس إلى شعراء الأندلس : " وقد أطلت عنان النظم ، على أنى اكتفيت عن الاستدلال على النهار بالصباح فبالله إلا ما أخبرتنى : من شاعركم الذى تقابلون به شاعراً ممن ذكرت ؟ لا أعرف لكم أشهر ذكراً ، وأضخم شعراً ، من أبى العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجمدا فخره ، وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم فى قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة :

إذا كان أملاك الزمان أراقماً فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

فما أقبح " ثعبان " وما أضعف ما جاء " دائم الدهر " . ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال . لا ينكر هذا على مثل الجراوى فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب فى الثقالة ."[1]

---

(1) نفح الطيب ٣ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعلى هذا النحو يمضى الشقندى فى رسالته . فيتفاخر بالفرسان والشجعان من أهل بلده ، ويسوق حكايات تدل على كرم النفس وشمائل الرئاسة ، ويأخذ فى تعداد محاسن المدن الأندلسية ، فيشيد بمزايا إشبيلية وقرطبة ومرسية وغرناطة وغيرها ، ولا ينسى فى ذلك كله أن يعرض بالمغاربة ، فإذا تحدث عن أصناف أدوات الطرب المنتشرة فى مدن الأندلس " كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون .. إلخ " أشار إلى أنه " ليس فى بر العدوة من هذا شىء إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال وليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقى البربر " [1] وحين يتحدث عن شهرة بليش إحدى قرى مالقة بشجر التين يقول : " وتين بليش هو الذى قيل فيه للبربرى : كيف رأيته ؟ قال : لا تسألنى عنه ، وصب فى حلقى بالقفة ؛ وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها " [2]

ورسالة الشقندى ليست هى الرسالة الوحيدة فى موضوعها ، فقد سبقتها رسالة لابن حزم [3] ، وأخرى لصفوان بن إدريس [4] فى تفضيل الأندلس وهذه الرسائل تعبير واضح عن اعتزاز الأندلسيين بوطنهم ، وتعصبهم له ، وفى مقابل ذلك نجد رسائل أخرى تتحدث عن (مفاخر البربر) [5] مما يشير إلى أن راية النثر كان أكثر وضوحاً من الشعر فى إظهار تعصب البربر لقومهم .

---

[1] نفح الطيب ٣ ٢١٣ .

[2] نفسه ٣ - ٢١٩ .

[3] نفسه ٣ ١٥٦ .

[4] زاد المسافر ص ١٣ .

[5] مخطوطة الرباط . ك . ١٢٧٥ .

هجاء اليهود :

تسلل اليهود إلى المجتمع الأندلسى قبل الفتح العربى وباتوا يؤلفون عنصراً من عناصر سكانه وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن النورمان كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ، .. وفى القرن العاشر الميلادى كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتهنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة ، وقد تقلب بعضهم فى مناصب الدولة ولاسيما فى عهد الناصر [1] .

وقد أشاد (جوستاف لوبون) بما لقيه اليهود من معاملة حسنة فى الأندلس فذكر أن أسبانيا العربية كانت هى البلد الأوربى الوحيد الذى كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها [2] .

وقد ارتفع شأن اليهود فى بعض الفترات ، وتقلد بعضهم مناصب الوزارة وقويت شوكتهم فى غرناطة فى عصر ملوك الطوائف ، فاستوزرهم بنو زيرى وسيطروا على مقاليد الأمور ، فنشأ تيار مناهض لنفوذ اليهود ، وارتفعت أصوات الشعراء تعبر عن سخط الأندلسيين وغضبتهم لتحكم اليهود فى شئون المسلمين واستئثارهم بخبراتهم وقد عبر عن ذلك أبو الحسين يوسف بن الجد فقال : [3]

تحكمت اليهود على الفروج	وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا	وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا	زمانك إن عزمت على الخروج

وكان أبو إسحاق الإلبيرى أبرز شعراء الأندلس الذين عبروا عن مشاعرهم المناهضة لليهود ، فقد عاش حياة قلقة فى غرناطة . وهاله استبداد اليهود بأمورها . ولم يكن راضياً عن إيثار حكام غرناطة لهم ، فقد اختصوا بنى

---

(1) فى الادب الأندلسى للركابى ص ٤١ .

حضارة العرب ص ٢٩٦ .

(3) الذخيرة ٢ ٢ - ٥٦٢ .

النغريلة بمناصب الوزارة ، وتركوهم يصرفون الأمور حسب أهوائهم مقابل الجبايات الضخمة التى كانوا يجمعونها من الناس ويقتسمونها معهم ، فتحكم هؤلاء الوزراء ومعهم المتصرفون اليهود فى مقدرات المسلمين ، يقول ابن عذارى مشيراً إلى تسلط اليهود فى تلك الفترة : " ودامت رياسة حبوس إلى أن هلك سنة ٤٢٨هـ ، فولى بعده ابنه باديس بن حبوس .. فأمضى باديس وزيراً له وكاتباً وزير أبيه اسماعيل بن نغرلة اليهود على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفعه فوق كل منزلة ، فأتخذ هذا اليهودى عمالاً ومتصرفين فى الأشغال واكتسبوا الجاه والمال فى أيامه واستطالوا على المسلمين ، وكان هذا اليهودى من أهل الأدب والشعر ، فدام أمره كذلك إلى أن هلك ، وترك ابناً له اسمه (يوسف) لم يعرف ذلة الذمة ولا قدر اليهودية ، وكان جميل الوجه ، حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد فى الأحوال ، واستخرج الأموال ، واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس ، وكانت له عيون عليه فى قصره من نساء وفتيات شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والإنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجرى فى منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به ، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهود ذلك .. وصارت لليهود صولة على المسلمين فى دولته [1] وتصاعدت مشاعر الغضب تجاه اليهود ، ونظم أبو اسحاق الإلبيرى قصيدته الشهيرة فى هجاء اليهود وتحريض البربر للثورة عليهم . ووضع حد لنفوذهم الذى استشرى وأعضل داؤه المسلمين .

ويمكن أن نقسم القصيدة إلى أربعة أقسام ؛ ففى القسم الأول يستثير الإلبيرى قبائل صنهاجة ، ويحفزهم لتدارك هذه السقطة الشنيعة التى وقع فيها باديس بن حبوس حين استوزر يوسف بن النغرلة ، فعز به اليهود ، وتسلطوا على المسلمين ، وملأوا خزائنهم بالأموال ، وتجاوزوا المقدار فى بغيهم . ويدعو الإلبيرى باديس والصنهاجيين إلى أن يأخذوا القدوة من السلف

---

[1] البيان المغرب ص ٢٦٤ " ط ليفى برنتال " .

الصالح الذين أدركوا حقيقة اليهود وضربوا عليهم الذلة والمسكنة . يقول أبو إسحاق [1] .

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ... تقرُّ بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ... فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضل قانت ... لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ... ولكنْ منّا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى ... من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون ... وردَّهمُ أسفل السافلين

وفى القسم الثانى من القصيدة يستثير أبو إسحاق حمية باديس ويهيج مشاعره للغضب على أولئك اليهود الذين بغّضوه إلى الناس ، وهدموا ما شيد من صروح وينعتهم بأقبح الأوصاف ، فهم " فراخ الزنا " وهم أهل الفسق وأرباب الفساد ويلوح بالمعانى القرآنية التى وردت فى شأنهم فيقول : [2]

أباديس أنت امرؤ حاذق ... تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم ... وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا ... وهم بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى ... إذا كنت تبنى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله فى وحيه ... يحذر عن صحبة الفسقين
فلا تتخذ منهم خادماً ... وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم ... وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها ... تجدهم كلاباً بها خاسئين

---

[1] ديوان أبى أسحق الالبيرى ص ٩٦ – ٩٧ .
[2] ديوان الإلبيرى ص ٩٧ .

وفى القسم الثالث يشير أبو إسحاق إلى واقع غرناطة الأليم بعد أن استحالت فى عهد باديس إلى بيئة يهودية ، وبعد أن آلت خيرات المدينة إلى اليهود ، ويتكىء أبو إسحاق على عنصر " المقابلة " فيقارن بين ما انصرف إليه اليهود من ثراء وترف ، وبين أحوال البؤس التى صار إليها أهل غرناطة ، يقول أبو إسحاق : [1]

وإنى احتللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ... وأنتم لأوضعها لابسون
وهم يذبحون بأسواقها ... وأنت لأطرافها آكلون

وفى القسم الأخير من القصيدة يُسخّر الإلبيرى كل ما يمتلكه من أدوات لإثارة باديس والصنهاجيين للتنكيل بابن النغريلة وقومه ، فيتحدث عن النعيم الذى يرتع فيه ، ويشير إلى سخريته واستهزائه بمعتقدات المسلمين ويدعو صراحة إلى قتل هذا الوزير وقومه الذين نكثوا العهد ، يقول : [2]

ورخم قردهم داره ... وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوانجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فإنا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قربة ... وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه ... فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذ مالهم ... فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ... بل الغدر فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم ... فكيف نُلام على الناكثين

---

(1) نفسه ص ٩٨ - ٩٩ .
(2) ديوان الإلبيرى ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وقد أحدثت قصيدة الإلبيرى أثراً هائلاً فى نفوس الصنهاجيين ، فاستثارت هممهم ، واستنهضت عزائمهم ، فاندفعوا فى ثورة عارمة ، فتكوا خلالها بابن النغريلة وبمن وقع تحت أيديهم من اليهود .

ولم يتكلف الإلبيرى فى قصيدته ، ولم يغرب فى صوره ومعانيه وألفاظه بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذى يقترب من أسلوب النثر إلى حد بعيد لأنه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربية ضئيل، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسراره محدود ، فصاغ أفكاره بلغة سهلة ، وعمد إلى استخدام صيغ وتراكيب معينة أخذ يرددها بكثرة كقوله " وهم يقبضون .. وهم يخضمون .. وهم يليسون وهم يذبحون .. إلخ " ومن هذه التراكيب المألوفة التى كررها كثيراً قوله : فكيف اختفت عنك أعيانهم ، وكيف تحب .. وكيف يتم لك المرتقى .. إلخ وجنح إلى الصور البسيطة التى يألفها الذوق العادى والتى لا تخلو فى الوقت نفسه من التهكم والسخرية كقوله: " ورخم قردهم داره ... " وقوله : " وضح به فهو كبش سمين " . واتكأ أبو إسحاق على العاطفة الدينية ، وعزف على هذا الوتر بمهارة حتى استطاع أن يثير مشاعر المسلمين وأحاسيسهم ، يقول جارثيا جومث عن قصيدة أبى اسحق : " والحق أن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم فكهربت العزائم ، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ، كالدور الذى لعبته هذه القصيدة ... إن ما تعرض له الشعراء فى الأندلس من إشارات سياسية كان يأتى عابراً كوخز الإبر الناعمة ، أو مخبأ كالطعوم المسمومة فى مهارة ، لكن هذا الشيخ لا يهدأ ، إنه برعم وفى لدم عربى ، ما أكثر ما أشعل بالهجاء البدوى الفاحش روح الصراع بين القبائل .. ولعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم

ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من المشاعر . لقد اجتاحت أنغامها ، حية ، متوهجة ، أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشرجة الموتى ! [١]

لقد وضع بنو النغريلة نهايتهم بأيديهم ليس فقط لأنهم استأثروا بالمناصب الهامة وتحكموا فى مقدرات المسلمين ، بل لأنهم أظهروا عداءهم للإسلام وتطاولوا عليه بشكل سافر على نحو ما صنع يوسف بن النغريلة حين ألف كتاباً زعم أنه ثمة تناقضاً فى كلام الله فى القرآن الكريم ، كما نقل عنه أنه كان ينظم القرآن شعراً وموشحات ، وقد ألمح أبو إسحاق الإلبيرى إلى صنيعه هذا عندما قال :

ويضحك منا ومن ديننا   فإنا إلى ربنا راجعون

وكان هذا السبب وحده كفيلاً باستثارة مشاعر المسلمين وحنقهم على اليهود، وقد تصدى ابن حزم للرد على مزاعم ابن النغريلة فى رسالة طويلة عرض فيها لتلك المزاعم ورد عليها واحدة فواحدة ، وكان يشفع رده بانتقاد بعض المسائل التى وردت فى التوراة لافتاً ابن النغريلة إلى أنَّ بيته من زجاج[٢] وقد عرض ابن حزم فى رسالته بابن النغريلة وأشار إلى ما حققه من ثروات على حساب المسلمين ، وما أظهره من عداء للإسلام واستخفاف بأهله فقال [٣] " إن بعض من تلقى قلبه العداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببغضه للرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسرين بأذل الملل ، وأرذل النحل من اليهود التى استمرت لعنة الله على الموسومين بها ، واستقر غضبه عز وجل على المنتمين إليها ، أطلق الأشر لسانه ، وأرخى البطر عنانة ، واستشمخت لكثرة الأموال لديه ، نفسه المهينة ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده ، همته الحقيرة ، فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل

---

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ١٣٤ وما بعدها .

(٢) الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى لابن حزم تحقيق د. إحسان عباس ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ٤٦ ، ٤٧ .

فـى القـرآن ، اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الديـن بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً ، فلما اتصل بى أمر هذا اللعين لم أزل باحـثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرنى الله عز وجل من نصـر ديـنه بلسـانى وفهمى ، والذب عن ملته ببيانى وعملى .. فأظفرنى القدر بنسـخة رد فيها عليه رجل من المسلمين . فانتسخت الفصول التى ذكرها ذلك الـراد عـن هذا الرذل الجاهل ، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة . بحول الله تعالى وقوته " .

ويفهـم مـن كـلام ابـن حـزم أنه لم ينفرد وحده بالرد على ابن النغريلة بل شاركه فى ذلك آخرون .

وقـد أكـثر حـزم فـى رسـالته مـن ذم ابن النغريلة ونعته بأقبح الأوصاف ، فـرماه بالـزندقة والـنذالة والوضـاعة وسـوء الخلق على نحو ما يبدو فى قوله [1] ومـا أرى هـذا الـزنديق الأنـوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر، وسكر عجب الصغير إذ كبر ، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع ، والسفلى إذا مر وشط ، والكلب إذا دبك ونشط .. وكيف بخلق سوء متكرر فى الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهابة ؟

ولله در القائل :

إذا أنـت أكرمـت الكـريم ملكـته ... وإن أنـت أكرمـت اللئـيم تمـردا

ويصـوب ابـن حـزم سـهامه إلى الـيهود جمـيعاً فيصفهم بأنهم " عصابة لا تحسـن إلا الخبـث مـع مـهانـة الظاهـر . فـيأنس المغـتر إلى الضعـف البادى ، وتحـت ذاك الخـتل والخـتر والكيد والمكر ، كاليهود . الذين لا يحسنون شيئاً مـن الحـيل ، ولا آتـاهم الله شـيئاً مـن أسـباب القـوة ، وإنمـا شـأنهم الغـش والتخابـث والسرقة على التطاول والخضوع ، مع شدة العداوة لله ولرسوله صلى

---

[1] الرد على ابن النغريلة ص ٤٩ .

الله علـيه وسلم " [1] ويختم ابن حزم رسالته بدعوة المسلمين إلى اجتناب اليهود ومقاطعتهم .

" فليـتق الله تعـالى امـرؤ آتاه الله نعمة من نعمه . ومنحه عزة . وليجتنب هـؤلاء الأنجـاس الأنـتان الأقـذار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلـة والقلـة والمهانـة والسخط والخسـاسة والوسخ مالم يحق بأمة من الأمم قط وليعـلم أن هـذه الكبس التى كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب ، وأسرع تعلقاً من الجذام " [2] .

فـابن حـزم وأبو إسحاق الإلبيرى - وكلاهما فقيه - هما اللذان قادا حملة المعارضـة ضد اليهود ، والتصدى لهم ، وإن كان ثمة فارق بين طبيعة المعارضة عـند كـل مـنهما ، فقد كان الإلبيرى أكثر جرأة حين دعا - صراحة إلى الثورة عـلى الـيهود واستئصـال شـأفتهم بيـنما اكـتفى ابن حزم بالدعوة إلى تحاشيهم وفرض العزلة عليهم .

---

[1] نفسه ص ٤٦ .

[2] الرد على ابن النغريلة ص ٨١ .

هجاء الشعوبية

كانت مشكلة الشعوبية إحدى المشكلات الخطيرة التى عانى منها المجتمع العربى لاسيما فى العصر العباسى . ويشخص أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام بواعث هذه المشكلة فيقول [1] : " وقد أدت إلى قيام هذه المشكلة أسباب عدة منها عصبية العرب لعروبتهم ، وتمسكهم بأنسابهم ، واعتبارهم كل من لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعياً .. وشعر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم ، فأحسوا فى نفوسهم بالضيق . وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقاً ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلهم يفوقونهم فى التاريخ القديم . ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التى أثرت تأثيراً كبيراً فى الأدب والعلم والحياة ، وظلت أصداؤها تتجاوب فى أنحاء الأمة الإسلامية مدة مديدة من الزمن " .

وقد وجدت مشكلة الشعوبية أصداء لها فى المجتمع الأندلسى ، وكانت بواعث وجودها فى الأندلس هى نفس البواعث التى أدت إلى وجودها فى المشرق ، ونعنى بذلك وجود طبقة من المولدين تشعر بالغبن والازدراء ، فى مقابل طبقة أخرى من العرب تشعر بالتفوق والزهو " ويميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التى جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التى اعتنقت الإسلام . وهذه العناصر الأسبانية المسلمة تسمى عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم (المسالمة) يطلق على الإسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام . واسم (المولدين) على نسلهم وكان المولدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية لتد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب . بعد عدة أجيال مضت . تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم فى الازدياد منذ حكم عبد الرحمن

---

[1] دراسات فى الأدب العربى – العصر العباسى . ص ١٦ ١٧ .

الثاني إذ اعتنق في عهده أعداد كثيرة من الإسبانيين الدين الإسلامي ، وكان بينهم من دخل في خدمة المسلمين وأصبحوا موالي لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الأسباني .. وكان من عادة مؤلفي التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربي أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذي جاء إلى الأندلس [1] .

وبجانب طبقة المولدين وجدت طبقة اجتماعية أخرى كان لها تأثيرها في المجتمع الأندلسي ، ونعني بذلك " الصقالبة " وهذه التسمية تنسحب على السلافيين بوجه خاص ، وعلى أسارى الحرب والأرقاء من مختلف الشعوب الشمالية بوجه عام [2] .

وبمرور الوقت أصبح الصقالبة يشكلون طبقة هامة في المجتمع الأندلسي " واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضي غنياً ، وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين .. وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم ، وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدءوا في عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية في الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وقد أظهر خليفة الناصر . الحكم الثاني كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه السياسي لاسيما بعد أن أخذوا يمعنون في التكبر والوقاحة .. " [3]

وقد أدى وجود المولدين والصقالبة إلى ظهور النزعة الشعوبية في الأندلس ويبدو أن ظهورها يرجع إلى وقت مبكر ، فنقرأ أن أحد الصقالبة . ويدعى

---

[1] في الأدب الأندلسي . ص ٣٥ – ٣٦ .

[2] انظر موجز بحث جولد تسيهر عن (الشعوبية عند مسلمي اسبانيا) أورده الأستاذ عبد السلام هارون في (نوادر المخطوطات) جـ ١ ص ٢٤١ .

[3] في الأدب الأندلسي للركابي ص ٣٨ وما بعدها .

حبيباً – يؤلف كتاباً يشيد فيه بمآثر قومه فيسميه (كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) "[1] . ولعل هذا الكتاب أول محاولة للكتابة في دائرة الشعوبية ، وإن لم يكن في صميمها ، لأن مؤلفه دافع عن عنصره ولم يهاجم غيره .[2]

وظهرت بوادر الشعوبية في الشعر الأندلسي منذ وقت مبكر ، ففي عصر الخلافة ، عبر الشعر عن الصراع الأدبي بين العرب والمولدين ، " وكان يمثل صورة من النقائض المشرقية ، وفيه في الجانب العربي الفخر بالقبلية ، وكان العرب لهم قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسي الثائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه بيوتات العرب من كورة وجيان ورية وغيرها ، فتغلب على المولدين ، وافتخر بنصره . وامتداد سلطانه وبقومه قيس في قصيدة طويلة ثم وجه سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم في وقعة (المدينة) وكان صاحبه سعيد بن جودي أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك الانتصار فقال :[3]

يقول بنو الحمراء لو أن جنحنا يطير لغشاكم بشؤبوب وابل

وكان من مظاهر احتدام الصراع الأدبي بين المولدين والعرب في عصر الخلافة ظهور لون من المناقضات الشعرية بين الفريقين ، " وكان للمولدين شاعرهم المحامي عنهم ، ويعرف بالعبلي ، واسمه عبد الرحمن أحمد وينسب إلى قرية عبلة ، ويناظره الشاعر الأسدي واسمه محمد بن سعيد مخارق الأسدي أسد بني خزيمة ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه . ويصف ما يجري لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية "[4] . فمن أمثلة هذه المناقضات قول العبلي يشيد بأحد انتصارات قومه على العرب :[5]

---

[1] نفح الطيب ٣ – ٨٢ .

[2] (الشعوبية عند مسلمي أسبانيا) بحث جولد تسيهر ، نوادر المخطوطات ص ٢٤١ .

[3] تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة ص ٩٧ وما بعدها .

[4] في الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – ص ٩٨ .

[5] المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

قـد انقضـت قـناتهم وذلـوا   وزعـزع ركـن عـزهم الأذل

ورد عليه الاسدى شاعر العرب بقصيدة من نفس البحر والروى يعتمد فيها طريقة القدماء فى النسج والصياغة ، منها قوله : [1]

قـد احـتمل الأحـبة واسـتقلوا   لطيـتهم بلـيل واحـزألوا
فظـل الدمـع مـن جـزع علـيهم   إذا احـتملوا يسـح ويسـتهل
سأصـرف همـتى عـنهم وأسـلو   بهجـوى معشـراً كفـروا وضـلوا

وكانت منطقة إلبيرة من أظهر مناطق الصراع بين العرب والمولدين فى عصر الخلافة ، فقد أحدث فيها المولدون فتناً كثيرة مثل فتنة عمر بن حفصون زعيم العجم التى استمرت أكثر من نصف قرن حتى تم القضاء عليه فى خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد تغنى ابن عبد ربه بهزيمة ابن حفصون فقال : [2]

رام ابـن حفصـون الـنجاة فـلم يسـر   والسـيف طالـبه فلـيس بـناج
مـازال يلقـح كـل حـرب حـائل   فـالآن أنـتجها بشـر نـتاج
ركـبوا الفـرار بعصـبة قـد جـربوا   غـب السـرى وخوافـت الإدلاج
وإذا سـألتهم مـوالى مـن هـم   قـالوا : مـوالى كـل لـيل داج

وبسقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دويلات أتيح للنزعة الشعوبية أن تقوى وتحتدم ، وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى احتدامها ضعف النفوذ العربى ووصول بعض أبناء الصقالبة والمولدين إلى الحكم على شاكلة أبى الجيش مجاهد العامرى – وهو أحد الموالى الصقالبة – الذى استأثر بحكم مملكة (دانية) ، وقد أضحى بلاط مجاهد ملاذاً للشعوبية ، فقد لاذ بكنفه اللغوى (ابن سيدة) صاحب (المخصص) الذى قال عنه صاحب سير النبلاء : " كان شعوبياً يفضل العجم على العرب .. وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد العامرى[3] وقد نشأ فى بلاط مجاهد أبو عامر بن غرسية أقوى صوت شعوبى

---

[1] المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .
[2] نفسه ص ٩٧ .
[3] سير النبلاء القسم الثانى ١١ ٨٠ مصورة دار الكتب .

ظهر فى الأندلس ، فقد ألف رسالة مشهورة فى تفضيل العجم على العرب ، وهى كما وصفها ابن بسام " رسالة ذميمة ، أغرب فى تسطيرها وذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم " .[1]

وقد ترجم ابن سعيد لأبى عامر بن غرسية فوصفه بأنه " من عجائب دهره، وغرائب عصره ، وإن كان نصابه فى العجمية ، فقد شهدت له رسالته المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء نصارى البشكنس ، سبى صغيراً ، وأدبه مجاهد مولاه ، ملك الجزر ودانية ، وكان بينه وبين أبى جعفر ابن الجزار صحبة أوجبت له أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك المرية. ناقداً عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده " [2]

فالباعث على كتابة رسالة ابن غرسية هو ذلك الخلاف الذى نشب بينه وبين الأديب أبى جعفر بن الجزار ، وقد تفاقم الخلاف بين الرجلين مما دعا ابن غرسية إلى هجائه بمثل قوله : [3]

بطرنة تعلم أصلاً له	عزبت فسلها فما تنكر
ومثل بها وضماً ماثلا	وشفرة جزر ولا أكثر
تجر ذيول العلى تائهاً	وجدكم الجازر الأكبر

وقد بدأ ابن غرسية رسالته بالسخرية من ابن الجزار الذى وقف شعره على مدح أمراء العرب والإشادة بمآثرهم كأنه لا يوجد فى الأرض سواهم فقال [4] " سلام عليك ذا الروى المروى ، المؤقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان ، إلا من غسان ، أو من آل حسان .."

وينتقل ابن غرسية إلى الفخر بقومه العجم والتعريض بالعرب فيقول : " أحسبك أزريت ، وبهذا الجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب

---

(1) الذخيرة ٣ - ٢ - ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

(2) المغرب ٢ - ٤٠٦ وما بعدها .

(3) نفسه ٢ / ٣٥٦ .

(4) نوادر المخطوطات جـ١ ص ٢٤٦ وما بعدها .

ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة ، أكاسرة ، مجد ، نجد ، بهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمران ، عن رعى البعران ، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة الروح ، نماة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان :

ما ضرهم أن شهدوا أمجادا أو كافحوا يوم الوغى الأندادا

ألا يكون لونهم سوادا

وفى مقام الفخر بقومه يلتفت ابن غرسية إلى التاريخ فيشير إلى أن هاجر أم العرب كانت أمة لسارة أم العجم ويحمل على العرب بشدة فيقول : " أرومة رومية ، وجرثومة أصغرية .. حسب جرى ، ونسب سرى ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهايل فى التكايل ، فما سنساقط قروداً، ولا حكنا بروداً ، ولا لكنا عروداً ، فلا تهاجر ، بنى هاجر أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق، وألحقناكم بالأحرار ، فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعاً ، يشارك سفعاً ، اضطركم إلى سكنى الحجاز ، وألجأكم إلى ذات المجاز " .

وعلى هذا النحو تمضى رسالة ابن غرسية ، فما من فضيلة يراها إلا وينسبها لقومه ، وما من منقصة إلا ويلصقها بالعرب ، فقومه من العجم ضراغمة الأجم ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال ربه الإياة .. دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .. شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج عن الكلب والفروج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الخب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان "

ويعود ابن غرسية إلى أحداث التاريخ مرة أخرى مفتخرا بأمجاد قومه السياسية ومزرياً بالعرب فيقول : " أما علمتم أن الدولة النوشروانية ، والمملكة الأردشيرية بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد الحيرة ، قللا ذللا ، تتخيرون البنات ، عند البيات ، مبهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم " .

ويتباهى ابن غرسية بأمجاد العجم في شتى مجالات العلوم فيقول : " حلم، علم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ،والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الأسترلوميقى والموسيقى ، والعلمة بالأرتماطيقى والجو مطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمهرة في علوم الأديان ، والأبدان ... "

ولكي ينأى ابن غرسية بنفسه عن مظنة الطعن في العقيدة الدينية يفتخر بالنبي عليه السلام وإن ظلت روح كراهية العرب تسيطر عليه فيقول : " ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، ففي الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك العزال .. "

ويختم رسالته بذم ابن الجزار قائلاً : " فاذهب يا غث المذهب . وابتغ في الأرض نفقاً ، أو في السماء مرتقى ، فهذه ألية ، جلبت عليك بلية ، أوحك من البسيط والمديد ، ما تستجيز به من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمنا موالى " .

وواضح من رسالة ابن غرسية أنه يردد كثيراً من المثالب التى اتكأ عليها دعاة الشعوبية في المشرق كوصف العرب بالغلظة والجلافة وامتهان المهن الحقيرة ، والانغماس في الشهوات ومعاقرة الخمر ، والتعريض بطريقتهم في المأكل والمشرب والملبس وما إلى ذلك من صور الطعن والزراية غير أن ثمة اختلافا بين مفهوم ابن غرسية لكلمة (عجم) ومفهوم شعوبية المشرق لها . فهم يعنون بهذه الكلمة (الفرس) على حين يتسع مدلول هذه الكلمة عند ابن

غرسية فيعني كل ما هو عجمي ، ومن هنا كان إشادته بالأكاسرة والقياصرة والروم وبني الأصفر ويقارن " جولد تسيهر " بين الشعوبية المشرقية والشعوبية الأندلسية فيرى " أن الميل الحقيقي للشعوبية في الأندلس يمتاز بحرصه على أن ينسجم مع العقيدة الإسلامية ، على حين نجد شعوبية المشرق على النقيض من ذلك ، إذ نرى ممثلي الشعوبية فيه من الملاحدة والزنادقة في أكثر الأمر"[1] كما يرى أن " جدل الشعوبية بالمشرق من جهة الأسلوب كان أبعد عن الصناعة الفنية ، ومن جهة المبدأ أقرب إلى الموضوعية العلمية منه إلى الذاتية الشخصية، على حين نجد كتابة ابن غرسية رسالة شخصية يستعمل فيها كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق ، وتلاعب بالألفاظ ، وتعريض وتضمين ، واقتباس ، ورمز إلى حوادث أدبية وحقائق تاريخية ، مما يطبع الرسالة الفنية بالطابع المطلوب . كما أن نمو وسائل الأسلوب الفني وتنوعها على الصورة التي يستخدمها كتاب القرن الخامس قد أعارت قلمه أحياناً لون التهكم والفكاهة الذي استغنى عنه جدل الشعوبية في المشرق " [2]

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة ابن غرسية كان لها أصداء واسعة المدى في الأندلس ، سواء في عصرها ، أو فيما تلاه من عصور ، ورغم أن ابن غرسية وجه رسالته أصلاً إلى أبي جعفر بن الجزار إلا أن المصادر لم تشر إلى أنه رد على رسالة ابن غرسية ، ومع ذلك فقد انبرى كثير من الكتاب للرد على رسالة ابن غرسية ، وقد وصلت إلينا بعض هذه الردود ، بينما ضاعت ردود أخرى لم يبق منها غير أسمائها وأسماء أصحابها ، نذكر منها : [3]

١- رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسي الذي سمى رسالته : "رسالة الاستدلال بالحق ، في تفضيل العرب على جميع الخلق ،

---

[1] انظر بحث جولد تسيهر عن (الشعوبية عند مسلمي أسبانيا) في نوادر المخطوطات ١ / ٢٤١ .

[2] المرجع السابق ١ / ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

[3] نوادر المخطوطات ١ ٢٣٩ .

والـذب والانتصـار لصـفوة الله المهاجـرين والأنصـار " وقـد أشـار إليها البلوى وصاحب كشف الظنون .

٢- رد الكاتـب ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى (ت سـنة ٥٤٠هـ) وسماه : " خطف البارق وقذف المارق ، فى الرد عـلى ابـن غرسـية الفاسـق ، فـى تفضيله العجم على العرب ، وقرعه النبع بالغرب " وقد أشار إليها البلوى فقال : " فأما ابن أبو الخصال، فأخـنى علـيه وصـال ، بحجـاج أمضـى مـن النصـال ، مالـه عـنها انفصال".[1]

٣- رد أبـى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى وكان يعرف بابن الفرس .

٤- رد عـبد الحـق بـن خلـف بـن مفرج ، وقد أشار إليه صاحب (تكملة التكملة) .[2]

أما الردود التى وصلت إلينا فهى : [3]

١- رد أبـى جعفر بن الدودين البلنسى ، كان معاصراً لابن بسام الذى قال عـنه[4] : " هـو أحـد مـن لاقيـته وشـافهته ، وأمـلى عـلى نظمه ونثره بأشـبونة سـنة سبع وسبعين وأربعمائة وأخبرنى برسالته التى رد فيها على أبى عامر بن غرسية " .

٢- رد أبـى الطيـب بـن مـن الله القروى (ت سـنة ٤٩٣ هـ) وقد سـمى رسـالته " حديقـة البلاغة ، ودوحة البراعة ، المورقة أفنانها ، المثمرة

---

(1) ألف باء للبلوى ١ / ٣٥١ نقلاً عن نوادر المخطوطات .
(2) تكملة التكملة ص ٤٢٢ .
(3) نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٦ وما بعدها .
(4) الذخيرة ، القسم الثالث ، المجلد الثانى ص ٧٠٣ - ٧٠٤ (تحقيق د. احسان عباس) .

أغصانها ، بذور المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم العجمية "

٣- رد أبى يحيى بن مسعدة الذى عاش فى عصر الموحدين .

٤- رد لمجهول وعنوانه " رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية " ويرجح الأستاذ عبد السلام عارون أن تكون هذه الرسالة أيضاً ليحيى بن مسعدة ، وذلك للتشابه الواضح بين أسلوبى الرسالتين ، ولتقارب بعض العبارات فيهما [١] .

رد ابن الدودين البلنسى على ابن غرسية :

استهل ابن الدودين رسالته بذم ابن غرسية فرماه بالخسة والنفاق ووصمه بالنذالة وخطل الرأى ، : فقال : [٢] " اخسأ أيها المجهول المارق ، والمرذول المنافق ، أين أمك ، ثكلتك أمك ، أو ما علمت أنك سحبت من عقالك لعقالك، وقدمت أول قدمك ، لسفك دمك ، وبسطت مكفوف كفك ، لسلطان حتفك ، وقلمت شبا أقلامك ، لاصطلامك ، وحبرت بحبرك ، لذهاب خبرك ، مشقت فى قرطاسك ، لشق راسك ، فما حقيقة جوابك على خطك خطابك ، إلا سلبك عن إهابك ، وصلبك على بابك " .

ويمضى ابن الدودين فى تهديد ابن غرسية ، ويشرع بعد ذلك فى تعداد الصفات التى أسبغها ابن غرسية على قومه ، فينقلها من معنى المدح الذى وضعت له إلى معنى الثلب والهجاء كقوله " الصهب السبال ، من ولغ الدم وشرب الأبوال . أكلة الجيف ، وحللة الكنف " ، " والوضوح ، الرجح " رجح الأكفال . وضح كذوات الأحجال ، " علم ، حلم " علم بالتداوى من القرم ، ومنافع القلم ، حلم عن كل مجاوز الحلم . " جمح طمح " الآن

---

[١] نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٧ .

[٢] المرجع السابق ١ / ٣٠٢ وما بعدها .

صدقت، وغلطك استدركت ، جمح فى الإحجام : عن الإقدام ، طلب الفرار، يوم الانتصار ، وإدراك الثار ، طمح إلى كل رموح طموح "

وحين وصف ابن غرسية قومه بأنهم " حماة السروح نماة الصروح " رد عليه ابن الدودين بقوله : " هل يصح فى التحصيل ، أو يجوز فى العقول ، أن يحمى قومك سروح شائهم ، وقد أباحوا فروج نسائهم ، أليس هذا عين المحال ومغالطة الجهال ؟ " .

ويكثر ابن الدودين من التعريض بابن غرسية وقومه كقوله : " ملس الأدم ما حاكوا قط بروداً ، ولا لاكوا عرودا " هذا وأبيك من التعريض الرقيق فى مقالك، وآلك ، وذلك أنك وصفتهم بأملاس الجلود ، وقضيت بنفى لوك العرود وإيجاب ذلك ، لا يليق إلا ببالك . فهذا لعمرك من بديع التحقيق ، فافخر ، فهاتان صفتان سلمتالكم . وأما لوك العرود ، فإن ذلك أوضح من السراج الوهاج، فى الليل الداج . قد تحدث أن ولدانكم عطلوا فى وقت سوق نسائكم ، فنمى ذلك إلى مليككم ، فحكم ، أكرم به من حكم ، أن يبيح النسوان ، من أنفسهن ما أباح الولدان ، وامتثلن ذلك فاتسقت الحالات ، ونفقت السوقات ، وما سمع فى الأزمان ، بأغرب من هذا الشأن ، فاشمخ بأنفك . وافخر بنصفك" .

ويقف ابن الدودين عند كل مثلبة ألصقها ابن غرسية بالعرب فيفندها واحدة إثر أخرى كقوله : " وأما ما قعقعت به ووعوعت ، من صواحب الرايات ، فهن وأبيك بعض بنات ربة الإياة . إمائنا المسبيات المتبنات ، لكتناهن ظبا البيض الهندية ، وشبا السمر الردينية ، فما عجنا بهن عما عودتموهن من البغاء ، للاسترضاء ، فيكثر معشر العربان من ولد سارتكم الأموان والعبدان ، وفيك من ذلك أصحُّ دليل وأوضح برهان " .

وحين وصف ابن غرسية العرب بأنهم حاكة برود رد عليه ابن الدودين بأن العجم هم الذين يمتهنون تلك المهنة " وأما حوككم البرود ، فناهيك من الغفارة الإفرنجية ، إلى الديباجة الرومية ، والنستبان بذلك تشهدان " .

ويمـى ابـن الدوديـن فـى رسـالته فيقرع الحجة بالحجة ، ويرد الطعنة إلى صدر خصمــه كقوله : " وقضيـــة أبى عبشـان التى عظمت ، ليس الأمر كما توهمـت ، لأن الكعبة بيت الله لا شريك له ، وضعه تعالى للعُبَّاد ، وسوى بين العـاكف فـيه والـباد ، وأبـو عبشان إنما باع خدمته فى البيت ، وهبها قضية سـفيهنا الغوىّ ، أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارى ، إذ باع نبيه روح القـدس ، بأعوانـه بـالأفلس ، فكـذب الله ظـنه ، وأنجـى نبيه ، فدونك ضع قضـية سـفيهنا فـى كفـة ، وفـى أخـرى قضـية إمـامك ، ورجـح بيـنهم بفض ختامك".

ويـنفى ابـن الدودين ما ادعاه ابن غرسية لقومه من تفوقهم فى علم الشرائع فـيقول " وأمـا فخـرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبدع البدائع ، " استنت الفصال حـتى القـرعى " " وجهـلهم بذلـك أوضح ، من أن يشرح ، وأبين من أن يبين لكـن أبكـت مـن ذلـك نكـتة ، وأنبذ منه نبذة ، تصفعهم صفعاً ، وترد صهب أدمهـم سـفعاً . وأنـى يكون ذلك ، هبلت لآلك ، ولم يأخذه عن نبى ولا نقلوه عـن حـوارى ، ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان ، إلى أن أصـاروه فـى خـبر الهذيـان ، وحسـبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلهاً نبيهم ، يسـمونه بالـرب المعبود ، وصيروه بعد مصلوب اليهود ، فاعجب بجهل يجمع بين هذين ، الطرفين " .

ويـنفى أيضـاً مـا ادعـاه ابن غرسية لقومه من عراقة الأصل ، ويضيف هذه المكـرمة إلى العرب فيقول : " وأما وصفك قومك أنهم " مجد ، نجد ، شمخ ، بـذخ ، عرق " ، فهيهات ذلك منهم ، تلك صفات قومنا العرب ذوى الأنساب والأحسـاب ، والعلـوم ، والحلـوم ، أولى اللسن ، والبيان واللحن ، والإسهاب

فى الصواب والحكمة وفصل الخطاب ، فرسان الإعراب ، وأرباب القباب ومعملى الصوارم والحراب ، أنديتهم عراص المنية ، وأرديتهم بيض المشرفية ولبوسهم مضاعفة الماذية .. مجالسهم السروج ، وريحانهم الوشيج ، وموسيقاهم رنات الردينيات . لم تكن قادتهم النساء ، ولا رادتهم فى آجالهم النساء " .

ويختم ابن الدودين رسالته كما بدأها بذم ابن غرسية الذى فضح جهله ما كان مستوراً من عورات قومه : " وما كان أغناك يا كشاجم ، عن كشف عورات آلك الأعاجم ، لكن ضعف نظرك ، حداك إلى هذرك ، وسوء أدبك ، وافى بك إلى عطبك " .

رد ابن من الله القروى :

كتب ابن من الله القروى رسالته " حديقة البلاغة " للرد على رسالة ابن غرسية ، وهى رسالة طويلة قسمها إلى فصول وافتتحها بهذه الأبيات : [1]

وذى خطل فى القول يحسب أنه	مصيب فما يلمم به فهو قائله
نهدت له حتى ثنيت عنانه	عن الجهل واستولت عليه معاقله
تعال فخبرنى علام تشددت	قوى العير حتى أحرزتك مجاهله

وذيل هذه الابيات بذم ابن غرسية فقال " أيها الفاخر بزعمه ، بل الفاجر برغمه ، ما هذه البسالة ، فى الفسالة ، ما هذه الجسارة على الخسارة " .

ويشير ابن من الله إلى فضل العرب على ابن غرسية . هذا الفضل الذى قابله بالجحود والنكران " أما كانت للعرب يد تشكرها ، أو منة تذكرها . أما جبرت نقيصتك ، أما رفعت خسيستك ، أما استنهضتك من وهدتك ، أما أيقظتك من فضلتك وقدرتك . ألم تربك فيها وليدا ، ألم تتخذك لها تليدا ، ألم تعن بتخريجك وتدريجك ، أما أنطقتك بعد العجمة ، أما أسلقتك بعد اللكنة ، حتى إذا اشتد كاهلك ، وعلم جاهلك . وقوى ساعدك ، ورقى صاعدك .

---

(1) نوادر المخطوطات ١ / ٣١٠ وما بعدها .

كفرت نعمتها لديك ، ونثرت عصمتها من يديك ، وأخذت تطاولها بأرسانها ، وتقاولها بلسانها ، وتناضلها بسهامها ، وتهاطلها برهامها " .

وينحو ابن من الله منحى ابن الدودين فى تعداد المآثر التى خلعها ابن غرسية على قومه ، فيصرفها عن مواضعها ، ويحيلها إلى سهام يسددها إلى صدر غريمه ، وينقلها من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، كقوله : " وهات أرنا مفاخرك ، ونرك مساخرك ، أنت صاحب الشهب ، الصهب ، والسنة شهباء، والجهام صهباء ، كذلك أنت لا خير ولا مير ، ولا عمر ولا عمير ، ليس للسخاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء فى العجمية رسم ، أين أنت عن السمر القمر ، البيض غرراً وصفاحاً ، السود طرراً وأوضاحا .. سعروا عليكم نار الحرب بتلك الأنيق الجرب ، فكسروا كياسرتكم ، وقصروا قياصرتكم ، وأخمدوا نار صولتكم ، ومحو أثار دولتكم ، وطهروا الأرض المقدسة من أنجاسكم ، والمسجد الأقصى من أرجاسكم .. " .

ويشتد (ابن من الله) فى حملته على قوم ابن غرسية ، ويكثر من إلحاق الصفات الذميمة بهم ، ويصمهم بكل منقصة على نحو يذكرنا بهجاء جرير للأخطل . فهم " الذين ينجون ولا يستنجون ، ويتجنبون ولا يتطيبون " وهم " رعاة الخنازير ، وأكلة السنانير " أما رجالهم " فقلف غلف " وأما نساؤهم " فقذر بظر ، لا يعرفون الخفاض ولا الختان ، ولا يألفون السنان ولا العنان " .

ويمضى (ابن من الله) فى هجائه لابن غرسية وقومه مقتفياً طريقة ابن الدودين فى صرف معانى المدح إلى الهجاء فيقول : (وأنتم كما وصفت ، ملس لس ، لا تغيرون ولا تغارون ، تمنعون ، ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهدت نهودكم ، واحمرت خدودكم تحلقون اللحى والشوارب ، وتتهادون القبل فى المشارب " .

ويحذو حذو ابن الدودين فى رد المثالب التى ألصقها ابن عرسية بالعرب إلى صدور العجم فيقول : " ومن الآيات ذكر صواحب الرايات ، والمباضعة

عـندكم كالمراضـعة . مـا فـى السـكر عندكم نكر . تبيحون ولوج العلوج ، على بـدور الخـدور . الـزنا عندكم سنا ، والفجار بينكم فخار بينكم فخار ، فكيف أنكـرت ، مـا ذكـرت ، وأنـت على سنن تلك السنن ، الحال قائمة ، والقصة دائمة " .

ويفخـر (ابـن مـن الله) بأمجـاد العـرب الذيـن فـتحوا بـلاد العجـم ، وأخضـعوهم لحكمهـم فانقـادوا لهـم أذلـة متصـاغرين " فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكـم ، واسـتعبدوا أولادكـم ، ثم إنهم حين قدروا ، غفروا ، ووضعوا الإتاوة عـلى جمـاجم ، الأعـاجم ، والمرسـوم فـى بـراجم ، السـلاجم ، فلا يحضرون العشـار . إلا بالعـثار ، ولا يشـهدون الأسواق . إلا بالأطواق ، فإن دخلتم فى الدين قطعت أستاهكم ، وأن خرجتم منه أخذت التى فيها شفاهكم وكنت أنت مـن رذايـا تلـك السبايا ، ومـن عـبايا . تلـك الخـبايا ، ومـن خطايـا ، تلك العطايا.. "

وعـلى هذا النحو من الإزراء بالعجم . والإشادة بالعرب ، يمضى (ابن من الله) فى رسالته ، فيتباهى بما أحرزه العرب من سبق فى شتى المجالات فقد جمعوا الطب فى كلمتين . فقالوا " إن المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء" وإذا تبينت فصول بقراط . أو أصول سقراط ، لن تجد مستزاداً مستجاداً ، كما يفخـر بمـا للعـرب مـن شـعر مـوزون ، ونظـم مكـنون . وكلام منثور ، وسجع مأثور..

رد يحيى بن مسعدة :

ظلـت أصـداء رسـالة ابـن غرسـية تتردد فى الأندلس بصورة قوية فعارضها كـتاب عاشـوا بعـد عصـر ابـن غرسـية عـلى شاكلة يحيى بن مسعدة وهو أحد الأدبـاء الذيـن عاشـوا فـى عصـر الموحديـن ، وقد أكثر فيها من ذم ابن غرسية

وقومه كقوله : [1] " فالتقط يا لقيط غرسية .. " " مثلك يا دمى العجم ، وذمى العجم " .

وعاب عليه كما فعل (ابن من الله) أنه قاول العرب بلسانهم ، وتمثل بأشعارهم وتنكر لأفضالها عليه " مالك يا وقاح ، ولهذا الحى اللقاح ، تفوهت بكلامهم ، وفقهت عن أفهامهم ، وأهلك بشعارهم ، وتمثلت باشعارهم .. هذا جزاؤها فى تدريبك وتعليمك ، وتصريف ألفاتها فى حلقة ميمك ، فلا ماء وجهك أبقيت ، ولا حرج أمك العفلاء أنقيت . وما أنبذك يا نبيذ لذمها وأقل شكرك على كفالتها لك وإلقاء أقلامها " .

ويعيره ابن مسعدة بأنه عبد عبدة الأوثان ، ويركز فى هجائه لقوم ابن غرسية على الجوانب المتصلة بالعقيدة كقوله : " يا تبعة المجوس ، وقرعة القرن والناقوس ، ألسنا بالقوس ، وأنتم بالفرقوس ، عبدة التثليث ، وشروة أجزاء الثالوث ، لقد أبحتم السمرة للعاضد ، وجئتم بما فضحت قومها غامد ".

ويحذو ابن مسعدة حذو سابقيه فى دحضه مزاعم ابن غرسية ، فيردها واحدة بعد واحدة غير أنه يميل إلى التفصيل والإسهاب ، ويكثر من إيراد الشواهد والأمثلة ، حتى لقد غدت رسالته أشبه بمتن من المتون ، فهو بالقياس إلى صاحبيه أمضى سلاحاً ، وأغزر ثقافة ، وأطول نفساً ، وأكثر قدرة على التتبع والاستقصاء .

وثمة ظاهرة تبدو أكثر وضوحاً فى رسالة ابن مسعدة . وهى الإكثار من تضمين الشعر كقوله فى هجاء ابن غرسية : [2]

أيا عبد عبد ألا تستحى	ولا لك دون المنهى زاجر
مواليك أخسرت من شأنهم	ستعلم ويلك من الخاسر
فإن تنج منى بنزع الشوى	كما أبق الضبع الباسر

---

[1] نوادر المخطوطات ١ / ٢٥٦ وما بعدها .

[2] نوادر المخطوطات ١ / ٢٨٩ .

فمـــاء ضـــلوعك مـــن نطفـــة ومـــاء الكـــراض دم مائـــر

ومن خلال هذه الرسائل الأربع التى عرضنا لها يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

أولاً : إنَّ الطريقة التى انتهجها كتاب هذه الرسائل تقترب إلى حد كبير من طريقة شعراء الهجاء ، ولاسيما شعراء النقائض ، إذ نرى فيها كثيراً من صور الهجاء ومعانيه التى نراها فى الشعر ، ففيها السب الصريح ، والميل إلى الفحش والإقذاع ، والإلحاح على النيل من نسب الخصم ، وإلحاق المخازى والمثالب بقومه ،وفيها ألفاظ الشتائم التى تجرى على ألسنة الدهماء ، وفيها الإشارات التاريخية والدينية المتصلة بذكر وقائع وأحداث قديمة ، استغلها كل جانب لترجيح دعاواه ، والزراية بخصمه .

ثانياً : أن هذه الردود الكثيرة التى أثارتها رسالة ابن غرسية تدل على " أن الشعور بالعروبة كان قوياً فى الأندلس على مر الزمن ، وأن السند الشعوبى لم يكن على شىء من القوة الأدبية " [1]

ثالثاً : أن الرسالة النثرية كانت أظهر من الشعر وأوضح فى إبراز النزعة الشعوبية التى احتدمت في الأندلس ؛ إذ أن ما لدينا من شعر يعبر عن هذه النزعة يبدو ضئيلاً متواضعاً بالقياس إلى النثر ، فكان النثر هو القالب الأمثل الذى استغله أدباء الأندلس للتعبير عن هذه النزعة .

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى – عصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ص ١٧٢ .

هجاء الفرنجة :

كان هذا اللون من الهجاء وليد الظروف السياسية التى مرت بها الأندلس كما كان ثمرة من ثمرات الصراع بين المسلمين والنصارى .

وإذا كان شعراء الأندلس قد خلدوا انتصارات المسلمين فى قصائد كثيرة أشادوا فيها ببطولة قوادهم وجيوشهم ، فإنهم من ناحية أخرى سخروا فى شعرهم من هزائم اعدائهم ، واستخفوا بملوكهم وقوادهم ، وعبروا عن كراهيتهم لهم فى صور كثيرة .

وتدور معانى هذا الهجاء حول نعت أعداء المسلمين بصفات الجبن والعار والمهانة ، والتنبؤ باندحارهم فى أى حرب يخوضنها ضد المسلمين ، ويكثر الشعراء من رسم صور ساخرة مزرية لهم كقول ابن بقى [1] :

يا معشر الروم قد شالت نعامتكم ... إما من الحين أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزى أسبغها ... إلا اتقاؤكم للصدر بالكفل
يا ويلكم معشراً بل ويل أمكم ... فإنها ولدت للثكل والهبل

ومن هذه الصور التى تصور جبن الأعداء وخورهم أمام بأس المسلمين وشجاعتهم قول ابن حربون : [2]

ألم تر قيصر فى ملكه ... إلى السلم من بأسكم يهرب
ولما تنله سوى عضة ... لها بين أكتافه مخلب

وفى كثير من القصائد يختلط مدح المسلمين بهجاء أعدائهم ، وتلك سمة مميزة لهذا اللون من الهجاء ، فمن ذلك هذه القصيدة لابن حزمون التى يمدح فيها المنصور الموحدى عقب انتصاره فى معركة الأرك سنة ٥٩١هـ ، ويهجو فيها أعداء المسلمين ويركز فى هجائه على الجوانب المتصلة بالعقيدة فيرميهم

---

(١) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٦٢١ .
(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

بالكفر والإلحاد والضلال ، ويشيد بالمنصور الذى طهر الأرض من دنسهم ورجسهم ، على نحو ما نجد فى قوله : [1]

أإمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سناقبس
لاقيت جموعهم وغدوا	فرصاً فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بها مهم	الربض مع الحرب الضرس
فأولئك حزب الكفر ألا	إن الكفار لفى تكس

ويعبر عبادة القزاز عن شماتته لمصرع ابن فرذلند – ولعله يعنى غرسية بن فرذلند الذى أسر سنة ٣٨٥هـ فى خلافة المنصور بن أبى عامر – فيقول [2] :

فرقت بين دماغه وفؤاده	وجمعت بين غرابه والسيد
وكأنما التابوت حنط شلوه	فأتاك فوق الظهر فى ملحود
أكلت وديعته الوغى وكأنما	رفع الذى أبقته فى سفود
رأس أميل عقوبة إذ لم يدن	لله فى أيامه بسدود
طمحت إليه عيوننا فكأنما	رصدت بطلعته هلال العيد

وأدار بعض الشعراء هجاءهم حول تسفيه معتقدات الفرنجة ، فسخروا من شعائرهم وطقوسهم ، وذموا رجال دينهم وأماكن عبادتهم ، كهذه الأبيات لابن شهيد التى يصور فيها ما يدور فى إحدى الكنائس تصويراً لاذعاً واصفاً من يرتادونها بأنهم ضحايا إبليس ، معرضاً بتصرفات بعض القساوسة ، على نحو ما يبدو فى قوله : [3]

وكنيسة أخذ البلى منها كما	أبصرت فيناً فى مغار ينهب
كم صاد إبليس بها من تائب	بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبراً	من جوذر وبدا عليه يخطب

---

[1] المعجب ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .
[2] التشبيهات لابن الكتانى ص ٢٦٠ .
[3] الذخيرة ٢ / ١ / ص ٦٨٢ .

سقياً لها من دار غيّ لم يزل — فيها كريم بالملاح معذب
بنس المصلى إن أردت تعبداً — فيه ولكن كان نعم المشرب

ويحتفظ ابن سعيد بزجل لأبى على الدباغ – أحد زجالى عصر الموحدين وقد وصفه ابن سعيد بأنه " إمام فى الهجو على طريقة الزجل والقول فى اللياطة " [1] ، وقد نظم هذا الزجل فى هجاء أم شخصى نصرانى يدعى (الجرنيس النيار) حين ماتت ، وقد مال فيه إلى الإقذاع والفحش ، على نحو ما يبدو فى قوله : [2]

عزوا إبليس ونوح يا كفار
ماتت أم الجرنيس النيار

* * *

أى عجوز لقد فجح فيها
كل شاطر إن كان فى ذا الجيها
حلفت الموت ألا يخليها
وأى رزيا جرت على الشطار

بها كان الربض يفوح ....
إن دعيت للفسوق تقول لبيك
وتزين قبح المعاصى إليك
متحل إبليس حتى تقح فالعار

* * *

لم تخلّى لهم فى قاع الدير
غير بطنا وقف مع لفطير
وعرم من خروق لمسح ...
وقدير تهيج الاسحار

* * *

---

[1] المغرب ١ / ٤٣٨ .
[2] المغرب ١ / ٤٤٠ وما بعدها .

خـــرج الـــروح عـــلى ديـــن الـــربى
وأبـــو مـــرا يصـــيح أيـــا حـــزبى
فـــى جهـــنم تركـــب عـــلى ...
مـــع أبـــنة القـــلا وزيـــك العـــيار

وبجانب ما فى هذا الزجل من تصوير فاحش وألفاظ بذيئة فإن صاحبه يتكىء على الناحية الدينية ويستغلها فى هجائه استغلالاً كبيراً .

وتشير بعض المصادر إلى احتدام بعض معارك الهجاء بين مسلمى الأندلس وبين الفرنجة فمن ذلك ما جاء فى " صلة الصلة " من أن النقفور ملك النصارى بعث بقصيدة نظمها أديب مرتد إلى المعتد بالله ، وذلك عقب استيلاء النصارى على بعض ثغور الأندلس ، فلما وصلت هذه القصيدة إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدى الخليفة ، اهتز الفقيه ابن حزم عند سماعها ، وأخذته الحمية ، فرد على شاعر نقفور بقصيدة طويلة صيغت فى قالب رسالة ، وجهها ابن حزم لنقفور واستهلها بقوله : [1]

مـن المحتمى لله رب العـوالم	وديـن رسـول الله مـن آل هاشـم
محمد الهادى إلى الناس بالتقى	وبالرشـد والإسـلام أفضـل قـادم
علـيه مـن الله السـلام مـردداً	إلى أن يوافـى البعـث كـل العـوالم
إلى قـائل بـالإفك جهـلا وضـلة	عـن النقفور المنتزى فـى الأعـاجم

ويشير ابن حزم إلى استيلاء النصارى على بعض الثغور فيقول :

سـلبناكم دهـراً فلـذتم بكـرة	مـن الدهـر أفعـال الضـعاف العـزائم
فطـرتم سـروراً عـند ذاك ونخـوة	كفعـل المهـين الـناقص المـتعاظم
ومـا ذاك إلا فـى تضـاعف غفلـة	عرتـنا وصـرف الدهـر جـم الملاحـم

---

(1) قطعة من شعر ابن حزم ، أوردها الدكتور إحسان عباس فى كتابه تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة ص ٣٧٤ وما بعدها .

ويذكر ابن حزم النصارى بأمجاد المسلمين وما أحرزوه من انتصارات على الروم فى السياسة والحرب ، وهو لا يصدر فى ذلك عن نزعة إقليمية ، ولكنه يصدر عن عاطفة دينية عامة ، فيذكر بفتوحات المسلمين فى الشام والأندلس ومصر وصقلية وغيرها من الأقطار :

ألم ننتزع منكم بأيد وقوة ... جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصر وأرض القيروان بأسرها ... وأندلساً قسراً بضرب الجماجم
ألم تنتصف منكم على ضعف حالها ... صقلية فى بحرها المتلاطم
أليس يزيد حل وسط دياركم ... على باب قسطنطينة بالصوارم
ومسلمة قد داسها بعد ذاكم ... بجيش لهام كالليوث الضراغم
وأدى لهارون الرشيد مليككم ... إتاوة مغلوب وجزية غارم

ويشير ابن حزم إلى سبايا الروم فيقول

ليالى قدناكم كما اقتاد جازر ... جماعة أتياس لحز الحلاقم
وسقنا على رسل بنات ملوككم ... سبايا كما سيقت ظباء الصرائم

ويتكىء ابن حزم فى هجائه للنصارى على الجوانب المتصلة بالعقيدة ، على نحو ما يبدو فى قوله :

أيقرن يا مخذول دين مثلث ... بعيد عن المعقول بادى المآثم
يدين لمخلوق بدين عبادة ... فيالك سخفاً ليس يخفى لكاتم
أنا جيلكم مصنوعة متكاذب ... كلام الألى فيما أتوا بالعظائم
وعود صليب لا تزالون سجداً ... له يا عقول الهاملات السوائم
إلى ملة الإسلام توحيد ربنا ... فما دين ذى دين لنا بمقاوم
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى ... محمد الآتى بدفع المظالم
فلم تمتهنه قط قوة آسر ... ولا مكنت من جسمه يد لاطم
كما يفترى زوراً وإفكاً وضلة ... على وجه عيسى منكم كل آثم
على أنكم قد قلتم هو ربكم ... فيا لضلال فى الحماقة جاثم
أيلطم وجه الرب تباً لجهلكم ... لقد فتم فى ظلمكم كل ظالم
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب ... سيلقى دعاة الكفر حالة نادم

والقصيدة تسيطر عليها عاطفة دينية قوية ، وترتفع فيها نغمة الحماسة والحدة ، غير أن صدورها عن البديهة والارتجال أفقدها كثيرا من المقومات الفنية .

وعلى أية حال ، فقد أثارت قصيدة شاعر نقفور ما أثارته رسالة ابن غرسية من قبل ، فلم يكن ابن حزم وحده هو الذى تصدى للرد عليها وإنما شاركه فى ذلك شعراء آخرون على شاكلة أبى بكر القفال الشاشى ، وأبى الإصبغ عيسى ابن زورال الغرناطى .[1]

---

[1] فهرسة ابن خير الاشبيلى ص ٤٠٩.

الفصل الثانى

هجاء أصحاب المناصب الرسمية

- هجاء الوزراء
- هجاء الولاة والعمال
- هجاء القضاة
- هجاء الفقهاء

لم يكتف الشعراء بهجاء الحكام وانتقاد تصرفاتهم وفضح أساليبهم ، بل وجهوا سهامهم أيضاً إلى كل من يعمل فى خدمتهم ، ولم يسلم أحد ممن شغل مناصب رسمية من ألسنتهم كالوزراء والولاة والعمال والقواد لأنهم يمثلون السلطة بشكل أو بآخر ، ولأنهم ينفذون سياسة الحاكم أيا كان لون هذه السياسة ، ولم يقف الشعراء بهجائهم عند طبقة الوزراء والقواد وحدهم ، بل اتجهوا بهجائهم إلى القضاة والفقهاء الذين مالئوا السلطة وتخلوا عن رسالتهم تحقيقاً لمصالح شخصية أو مطامع رخيصة .

هجاء الوزراء :

يمكن أن نميز اتجاهين واضحين فى هجاء الوزراء . أحدهما ، صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية ، والآخر صدر فيه أصحابه عن دوافع ذاتية ويمكن أن نمثل للاتجاه الأول بقول من يسمى ابن الربيع فى هجاء حكم بن سعيد الحائك وزير المعتد بالله : [1]

هبك كما تدعى وزيراً وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معنى فكيف من وزر الأمير

غير أن أغلب هجاء الشعراء للوزراء كان يختفى وراءه بواعث ذاتية ، إذ كان منصب الوزراء مطمحاً للكثيرين ، فكان هجاء الوزراء فى معظمه ناجماً عن حقد وضغينةللمكانة التى يتبؤها هذا الوزير أو ذاك ، وقد يصب الشاعر هجائه على أحد الوزراء لأنه امتنع عن لقائه ، أو حجبه عنه لأنه لم يقيد اسمه فيمن يأخذون الهبات والعطايا ، ولابن شهيد بعض قصائد فى هجاء الوزراء ، صدر فيها عن دوافع ذاتية . فمن ذلك ما يذكره الحميدى من أن ابن شهيد ذهب ذات مرة للقاء أحد الوزراء ولكنه امتنع عنه ، فهجاه بقوله : [2]

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا إليك ولا قلب إليك مشوق

---

[1] البيان المغرب ص ١٤٧ (طبعة ليفى بروفنسال) .

[2] جذوة المقتبس ص ١٢٣ . ديوان ابن شهيد ص ٨ .

ولكنـــنا زرنـــا بفضــل حلومــنا حمـــاراً تلقـــى بـــرنا بعقـــوق

وتذكـر الروايات أن العداء تفاقم بين ابن شهيد وبين وزيرين أحدهما يدعى أبـا الحسـن بـن عـلى والآخـر هو ابن فتح ، وقد هجاهما ابن شهيد هجاءً مراً واصماً إياهما بالوقوع فى خلة اللواط ، ملوحاً إلى ذلك بكلمة القرد ، وفى ذلك يقول : [1]

هـــلا ســترت الشـين بالــزين مـــن قـــبل إحضـــار الوزيـــرين ؟
قـــد عـــلما أنهمـــا أحضـــرا لخلـــوة أثقـــل مـــن ديـــن
لمـــا تدانـــت قـــاب قوســـين أصـــابهما الحاســـد بـــالعين
فانصـــرفا مـــثل انصـــراف الفـــتى أســـلم إلفـــاً لـــيد الـــبين
صـــدهما عـــن قـــردك المصـــطفى نطحـــة نطـــاح بـــروقين
ومـــا أرى الـــناس عـــلى مـــا مضـــى مـــن قـــبله قـــرداً بقـــرنين
أربعـــة فـــى مجلـــس جمعـــوا فطـــار هـــذان بهذيـــن
قـــد لـــزما جنبـــيك لم يـــبرحا لهفـــى عـــلى ضـــيعة جنـــبين
فأنـــت مـــا بيـــنهما جـــالس جلـــوس أيـــر بـــين خصـــيين

ويهجـو ابـن شـهيد الوزيـر ابن فتح فى قطعة نثرية ملوحاً بكلمة القرد مرة أخـرى إلى تلـك العـادة الذمـيمة الـتى رماه بها فيقول : [2] " ما كان هذا القرد أهـلا لأن يحمـل عليه حر كلام ، ولا ليرمى بفضل بيان ، ، وبالحرا أن يرقم عـلى عتبة دكـان ، أو يصور عـلى بـاب حمام ، وقد غرس فى وجعائه رأس نخلة ، وحيى فى سعفها عش نحلة "

ويعـد ابـن سـهل اليكى أحد الشعراء الذين أكثروا من هجاء الوزراء . كقوله فى ابن خيار الوزير : [3]

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ص ٢١٤ ، ديوان ابن شهيد ص ١٦٤ .
[2] ديوان ابن شهيد ص ٣٤ .
[3] زاد المسافر ص ١٢٢ .

أيا ابن خيار بلغت المدى   وقد يكسف البدر عند التمام
فأين الوزير أبو جعفر[1]   وأين (المقرب) عبد السلام[2]

وقد أولع إليكي بهجاء وزير يدعى أبا الحسن وأفحش كثيراً في هجائه كقوله : [3]

ثمان خصال في الوزير وعرسه   وثنتان والتحقيق بالمرء أليق
(......)[4] وتزني فعلها مثل فعله   فإن لاط يوماً فهي لاشك تسحق
ويكذب أحياناً ويحلف حانثاً   ويكفر تقليداً ويزني ويسرق
وعاشرة والذنب فيها لأمه   إذا ذكرت لم يبق للشتم منطق

وأفحش في هجائه مرة أخرى فقال . [5]

أخاف من الجوارح أن يلموا   ومالي بالجوارح من يدين
فإما تدخلوني حرح أسما[6]   فأقلب كل ذي نظر وعين
وإلا فارفعوني إن قدرتم   على قرن الوزير أبي الحسين

وكان الفحش والإقذاع والتشهير هي الصفات الغالبة على هجاء الوزراء فأكثر الشعراء من رميهم بالفسوق ، واتهامهم وأهلهم بارتكاب الأفعال القبيحة ، على نحو ما رأينا في هجاء ابن شهيد واليكي ، وقد شارك الأعمى المخزومي في هذا الاتجاه ، فقال يعرض بأبناء أحد الوزراء : [7]

زنجيكم بالفسوق داري   يدلي من الحرص كالحمار
يخلو بنجل الوزير سراً   فيولج الليل في النهار

---

(1) هو أبو جعفر بن عطية الذى أمر عبد المؤمن بن على بصلبه .

(2) هو عبد السلام الكومى الملقب بالمقرب ، أحد وزراء الموحدين ، وقد مات مسموماً .

(3) زاد المسافر ص ١٢٢ .

(4) حذفنا الكلمه الصريحة لقبحها ، وهي بصيغة المضارع المبنى للمجهول ويمكن فهمها من السياق .

(5) خريدة القصر ٣ / ٥٨٠ .

(6) أسماء هي زوجة الوزير .

(7) المغرب ١ / ٢٣١ .

ولابـن الخطيب قصيدة طويلة فى هجاء الوزير ابن أبى الفتح ، نظمها بعد جـلاء هذا الوزير فى الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد أن تحقق من هلاكه هو ومن معه ، وقد بدأها ابن الخطيب بقوله [1]

كن من صروف الردى على حذر	لا يقـبل الدهـر عـذر معـتذر
ولا تعـول فـيه عـلى دعـة	فأنـت فـى قلعـة وفـى سـفر
فكـل رى يفضـى إلى ظمـأ	وكـل أمـن بدعـو إلى غـرر
كـم شـامخ الأنـف ينثـنى فـرحاً	بـال علـيه زمانـه وخـرى

وبعـد هـذا التمهيد يخلص ابن الخطيب إلى هجاء ابن أبى الفتح ، فينسب إليه كل منقصة ، ويرميه بالبلادة والشؤم كقوله : [2]

قـل للوزيـر البلـيد قـد ركضـت	فـى ربعـك الـيوم غـارة الغـير
يـا ابـن أبـى الفـتح نسـبة عكسـت	فـلا بفـتح أنـت ولا ظفـر
وزارة لم يجـد مقلدهـا	عـن شـئمها فـى الوجـود مـن وزر
فـى طـالع الـنحس حـزت رتبـتها	وكـل شـىء فـى قبضـة القـدر

وتقـترب طريقة ابن الخطيب فى هذه القصيدة من النزعة الشعبية سواء فى أسـلوبه أو فـى ألفاظـه وصـوره ، فهو يكثر من ألفاظ الشتم والسباب مستخدماً حرف النداء (يا) بكثرة كقوله : [3]

يـا طلـلا مـا علـيه مـن عمـل	يـا شـجراً مـا لديـه مـن ثمـر
يـا مفـرط الجهـل والغـباوة لا	يحسـب إلا مـن جملـة الـبقر
يـا دائـم الحقـد والفظاظـة لا	يغـرق مـا بـين ظـالم وبـرى
يـا كمـد اللـون يـنطفى كمـداً	مـن حسـد يسـتطير بـالشـرر

ويتأنق ابن الخطيب فى هجائه للوزير ابن أبى الفتح ، ويعمد إلى (التصوير الهزلى) فيصوره فى صورة هزيلة ساخرة تستدعى الضحك ، كقوله : [4]

---

(1) نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

(2) نفسه ٥ / ١٤٠ .

(3) نفح الطيب ٥ / ١٤١ .

(4) نفسه ٥ / ١٤١ .

يـا عــدل ســرج يــا دن مقــتعد ... مــلآن مــن ريــبة ومــن قــذر
يـا واصــلا للجشـاء ناشـئة الليـ ... ـل ورب الضـراط فـى السـحر
يـا نـاقص الديـن والمـروءة والعقـ ... ـل ومجـرى اللسـان بـالهذر
يـا ولـد السـحق غـير مكتـتم ... حديـثه ، يـا ابـن فاسـد الدبـر
يـا بغـل طاحونـة يـدور بهـا ... مجـتهد السـير مغمـض البصـر
فـى اشـهر عشـرة طحنـتهم ... فـيارحى الشـؤم والـبوار در
عهـدى بـذاك القفـا الغليـظ وقـد ... مـد لوقـع المهـند الذكـر

وعلى هذا النحو يمضى ابن الخطيب فى هجائه ، رامياً المهجو بأقذع الصفات ، مظهراً الشماتة لهذا المصير المؤلم الذى لقيه ابن أبى الفتح حين مات غرقاً .

هجاء الولاة والعمال :

كان الولاة والعمال من أهم الركائز التى يعتمد عليها الحكام فى تسيير دفة الحكم ، وكان على هؤلاء العمال أن يديروا أعمالهم على أسس من العدالة والنزاهة وطهارة اليد ، ولكن كثيراً منهم انحرف عن مهمته المنوط بها ، فاستخدموا أساليب القسوة والغلظة فى معاملة الناس ، ولم يتورعوا عن ارتكاب الموبقات ، واتجهوا إلى تكديس الأموال بالطرق غير المشروعة ، وتصدى الشعر لهؤلاء المنحرفين ، فكشف عن فسادهم ، وفضح أساليبهم الملتوية ، فمن ذلك قول ابن حزمون فى هجاء المجريطى أحد عمال مرسية يتهمه بالنهب وسرقة أموال الدولة : [1]

إلى الله أشكو مشرئباً إلى الغنى ... حريصاً على كسر المخازن حافزا
ألا إن قـارون اسـتعز بكـنزه ... فواهـا لمن أضحى كقارون كانـزا
فمـا بالـه اسـتغنى فنهـنه واجـباً ... وجـوز مـا لم يجعـل الله جائـزا

---

[1] الذيل والتكملة ٥ / ١ / ١٤٤ .

ويعبر يحيى بن الحكم الغزال عن نظرة الناس عامة لأولئك العمال ، فهم يأكلون أموال الناس ، ويستأثرون بالخيرات لأنفسهم ، ولا يتركون للرعية إلا الفتات ، يقول : [1]

يقول لنا القاضي (معاذ) مشاوراً ... وولى أمرأ فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً ... فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ما كان من فضل

ويصوب أبو محمد بن عبد الله سهامه إلى صاحب إشبيلية ، فيقول : [2]

لا تيأسن من الخلافة بعدما ... ولى ابن عمرو خطة الأشراف
تبا لدهر هذه أفعاله ... يضع النوافج في يدى كناف

ويتجه ابن القزاز بهجائه إلى صاحب الشرطة ويتندر عليه فيقول : [3]

أبا عامر ماذا أتيت من العار ... فها أنت من ثوب العلا فى الورى عارى
تبدلت شرطياً بصاحب شرطة ... كريم نجار النفس ممتنح الجار
فأصبحت كالطرطور كان لسيد ... فأخلق حتى صار فى رأس عيار

ويقول حبلاص الرندى فى هجاء أحد الولاة : [4]

لا تفرحن بولاية سوغتها ... فالثور يعلف أشهراً كى يذبحا

ويحتفظ صاحب خريدة القصر بغير قصيدة لأبى عامر بن الأصيلى فى هجاء عمال ابن ذى النون ورؤساء حصونه ، فمن ذلك قوله : [5]

قل لابن ذى النون الرئيس الذى ... ليس له شىء من البخت
يا مالكاً يجعل قواده ... قوماً غدوا عليه باللفت
جاءوا على الشرق جياعاً فما ... يشبعهم شىء من السحت

---

(1) قضاة قرطبة ص ٨٦ .
(2) نفح الطيب ٤ / ٤٦٥ .
(3) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .
(4) نفح الطيب ٤ / ١٣٣ .
(5) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

من كل حنراث له لحية … تدهن بالشحم وبالزيت
إن صار في حصن رأى أنه … قد أدخل العالم في تخت
يحسد فرعون على قوله … " وهذه الأنهار من تحتي "
ما هذه الأشباح تبا لها … قد ملئت بالسفه البحت
هيهات لا حر ولا حرة … في باب إقليش إلى البونت

ويبدو أن ابن الأصيلي قد مر بتجربة مريرة مع رؤساء الحصون ، ففي قصيدة أخرى يذم رؤساء جزيرة شقر لأنهم منعوه من دخول المدينة : [1]

حللت الجزيرة سحقاً لها … كأني حللت بسردانيه
منعت الدخول إلى أهلها … فدرت كما دارت الساقيه
وبت ثلاثاً بها طاوياً … فراى همومي وأحزانيه
فقل لابن ذي النون ما باله … يولي الحصون بني الزانيه
وإن فعال بني آدم … لتبقى وأشخاصهم فانيه

وفي قصيدة ثالثة يذم ابن الأصيلي رئيس حصن بلنسية للسبب نفسه ويتصف هجاؤه بالدعابة والسخرية كقوله : [2]

حتى إذا رمت دخولا أبت … نفس أبي الحجاج لي بالدخول
راسلته مستنزلا راغباً … فكاد أن يقطع رأس الرسول
أكرم به من قائد ماجد … يصلح للحرث ورعي العجول
لابد لي إن عشت والله أن … أخرى على لحيته أو أبول

وهذه الأمثلة التي أوردناها لابن الأصيلي تكشف عن روح مرحة ، ونفس طبعت على الخفة والدعابة .

---

[1] خريدة القصر ٣ / ٢٠٩ .
[2] نفسه ٣ / ٢٠٩ ، ٢١٠ .

هجاء القضاة :

يحتفظ (الخشنى) بصورة مشرقة لكثير من قضاة الأندلس الذين عرفوا بالنزاهة ، وشهروا بالتقوى والورع ، غير أن بعض القضاة حادوا عن الجادة فلم يتحرجوا من قبول الرشوة سعياً لتحقيق كسب رخيص ، وتهاون بعضهم فى إقامة الحدود . ومال آخرون إلى القسوة والغلظة فى معاملة الناس ، وقد تصدى الشعراء لأمثال هؤلاء القضاة ، فأكثروا من هجائهم وتتبع زلاتهم وانتقاد تصرفاتهم المخزية ، فمن ذلك قول اليكى فى أحد قضاة مرسية :[1]

تسمع أمير المسلمين لنبأة ... تصم لها الآذان فى كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حده ... وأخطأ وجه الرشد فى كل مقصد
يطالبه الأيتام فى جل مالهم ... ويطلبه فى حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل ... تسوده بالجور كف ابن أسود

ويتهم ابن القطان (ت ٥٥٨هـ) القاضى ابن المرخم بالجهل فى تطبيق الأحكام فيقول :[2]

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً ... خرف الزمان تراه أم جن الفلك
إن كنت تحكم بالنجوم فربما ... أما بشرع محمد من أين لك ؟

ويتهم يحيى بن الحكم الغزال القاضى يخامر بن عثمان الشعبانى بالتخبط فى تطبيق الأحكام فيقول :[3]

فقلت له كلفتنى غير صنعتى ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت له استعفيت منها ، فقال لى ... سأفصح ما قد كان ذاك مغايرا
فقلت له رأس الفقوح إقامة ... علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك فى دين الإله على عمى ... خباطة سكران تكلم سادرا

---

(1) المغرب ٢ / ٢٧٠ .
(2) نفح الطيب ٢ / ١٣٥ .
(3) المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٢٠٠ .

فلن تحمل الصخر الذباب ولن ترى الـ ـــلاحف يزجين السفين المواخرا

وكلف عبد الرحمن بن مغاور الشاطبى (ت ٥٨٧هـ) بهجاء قاض يدعى (ابن بيش) ، فتحول عنده إلى أمثولة ، وأسرف فى التشهير به ، والتهكم عليه، واتهمه بتعطيل الحدود وتزييف الأحكام ، وتحليل ما حرم الله ، والعكوف على الخمر ، والجرى وراء مصالحه الخاصة ، فمن ذلك قوله :[1]

لا تظنوا ابن بيش ... فى قضاياه يرتشى
إنما الشيخ هلهل ... فهو يصحو وينتشى
فترى الحكم غدوة ... وترى النقض بالعشى

ويتندر عليه مرة أخرى فيقول :[2]

الحمد لله بلغنا المنى ... لا حد فى الخمر ولا فى الغنا
قد حلل القاضى لنا ذا وذا ... وإن شكرناه أحل الزنا

ويبالغ فى التشهير به فيقول :[3]

قال ابن بيش المشهور موضعه ... قولا يعاب عليه آخر الأبد
الخمر والزمر والفحشاء أجمعها ... حل وبل وتبقى خطتى بيدى

ومال بعض الشعراء فى هجائهم للقضاة إلى الإقذاع كما نجد فى هجاء المخزومى الأعمى لقاضى بياسة ، فهو يستغل أحد عيوبه الخلقية استغلالاً سيئاً ، فيقول :[4]

أصخ للذى لم يأت دهر بمثله ... لعمرى ولم يسمع به قط سامع
لبياسة قاض قطيم مثولل ... ثواليله من أن (...) موانع
فراحته فى أن يرى (...) عرسه ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع [5]

---

(1) زاد المسافر ص ٨١ .
(2) نفسه ص ٨١ .
(3) نفسه ص ٨١ .
(4) نفسه ص ١١٧ .
(5) الشطر الثانى من هذا البيت للنابغة الذبيانى .

وقد وقف بعض القضاة من شعراء الهجاء موقفا حازما . فعندما هجا أبو بكر ابن الحاج القاضي ابن توبة ، أتى به القاضي ، وضربه ضربا موجعاً وأمر فطيف به على الأسواق ، والناس يصيحون به من أمام . ويضربونه من خلف، وأشار أبو إسحاق الإلبيرى إلى هذه الحادثة معبراً عن تشفيه وغبطته للعقاب الذى ناله ابن الحاج ، فقال : [1]

السوط أبلغ من قال ومن قيل ... ومن نباح سفيه بالأباطيل
مر المذاق كحر النار أبرده ... يعقل المتعاطى أى تعقيل
رأى من الطب ما بقراط لم يره ... فى برء كل سخيف العقل مخذول
ضئيل جسم تهاب الخيل سطوته ... أعدى وأطغى من التمساح فى النيل
يرقص المرء ترقيصاً بلا طرب ... لو كان أثقل أو أجسا من الفيل
عند السخيف به خبر وتجربة ... فقد رمى تحته ما عد بالفول
وقد حسا منه أمراقاً مغلغلة ... جشته شر الجشا من شر مأكول
وقد هجاه بهجو مؤلم وجع ... لا يشبه الشعر فى نظم وتفصيل
فقل له إن جرى هجو بخاطره ... أذكر قيامك محلول السراويل
واذكر عقوبة ما زورته سفهاً ... فى السادة القادة الشم البهاليل

وقد شارك النثر أيضاً فى هجاء القضاة ، فهناك رسالة لأحد الكتاب كتبها على لسان على بن يوسف بن تاشفين ساخراً فيها من القاضي ابن أضحى الغرناطى بعد أن عزله عن قضاء المرية ، متهماً إياه بالجهل بأحكام القضاء وفيها يقول : [2] " ... وتقرر لدينا أن الجهول بن أضحى أجهل بأحكام القضاء من الهلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبذناه دون أن تداركه نقمة من ربه بالعراء وهو مذموم ، ولعل متعسفاً يتعسف ، وجائراً لا ينصف ، يلومنا فى تقديمه . وينالنا من العتب بأليمه . ولا قدح فقد اختار رسول الله صلعم لوحى الله لعين بنى سرح ، وقد اغتر عثمان بحمران . ولسنا أول من خانه القياس ، ومن لم يأته من الغوير باس " .

---

(1) ديوان الإلبيرى ص ١٠٩ - ١١٠ .

(2) معجم السلفى ورقة ١٢١ - ١٢٢ .

هجاء الفقهاء :

بلغ الفقهاء منزلة عظيمة في الأندلس ، وقوى نفوذهم في فترات كثيرة حدث ذلك في قرطبة أثناء حكم هشام ، فكانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، وحين حاول عبد الرحمن الثاني أن يحد من سيطرتهم ، هاجموه من على المنابر ، وألّبوا الناس عليه ، واتهموه بالإسراف والبذخ ، فحرض الحكم الشعراء على هجائهم ، فكان ممن هجاهم عباس بن فرناس ، والحكم بن يحيى الغزال الذى اتهمهم باستغلال نفوذهم ، وجمع المال بطرق غير مشروعة فقال : [1]

لست تلقى الفقيه إلا غنياً	**ليت شعرى من أين يستغنونا**
تقطع البر والبحر طلاب الرز	**ق والقوم هاهنا قاعدونا**
إن للقوم مضرباً غاب عنا	**لم يصب قصد وجهه الراكبونا**

وأشار الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته إلى احتفاء الأندلس بالفقهاء فقال : [2] " ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور معروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده .. وكان منهم أصحاب الأمر والنهى إلى جانب الحكام أنفسهم ، كما كانت الحال في قرطبة أيام بنى جهور ، وكذلك كانت شئون دولة بنى ذى النون بطليطلة موكولة إلى الفقيه أبى بكر الحديدى ، كما ان بلنسية أسلمت أمرها في إحدى مراحل تاريخها إلى القاضى ابن حجاف " ، وأشار ابن الخطيب إلى إيثار بنى عامر للفقهاء فقال عن زهير العامرى : " إنه كان يشاور الفقهاء ويعمل بقولهم " [3] كما ذكر أن مجاهداً العامرى نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه وهو الفقيه المعيطى ، ... ، وكان في عداد الفقهاء

---

(1) شعر يحيى بن الحكم الغزال . جمع صالح البداق . ص ٣٦ .

(2) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ - ١٨

(3) أعمال الاعلام ص ٢٠٦ .

المشاورين بقرطبة ، فنصبه خليفة وأخذ له على الناس البيعة ، فاستبد المعيطى بالناس ، واستأثر بالفيء ، وجاهر بالمعاصى " .

وارتفع شأن الفقهاء أيضاً فى عصر المرابطين ، وكثرت أموالهم ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال – وهو يتحدث عن ولاية على بن يوسف بن تاشفين :

" واشتد إيثاره لاهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم – صغيرها وكبيرها – موقوفة عليهم ، طوال مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، وانصرف وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك ، واتسعت مكاسبهم [1].

وقد أثار وضع طبقة الفقهاء انتقادات عنيفة ، سواء من المؤرخين أو الأدباء، وإذا كان المراكشى قد ألمح إلى ما غنموه من مكاسب ، وما شغلوا به أنفسهم من جمع للأموال على حساب ضمائرهم . فإن مؤرخاً سابقاً عليه – هو ابن حيان – قد أعلن رأيه صراحة فيهم ، فألقى بالتبعة عليهم ، واتهمهم بالرياء ومصانعة الأمراء ، ورماهم بالقعود عن الحق ، والتخبط فى الأهواء فقال: " ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين ، هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ؛ فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا ، بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم ، من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من

---

(1) المعجب ص ٢٣٥ .

حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية في صدقهم " [1] .

وقد اشتد هجاء الفقهاء في عصر المرابطين بعد أن أحس الشعراء بارتفاع شأنهم أكثر من أي وقت مضى ، وبعد ما رأوه من تكالبهم على جمع الثروات ومصانعتهم للحكام ، وانصرافهم عن مصالح الناس ، واستغلال نفوذهم في تحقيق مآربهم الخاصة ، فقال فيهم أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالابيض : [2]

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب يدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم [3]
وركبتم شهب البغال بأشهب [5] ... وبأصبغ [4] صبغت لكم في العالم

وقال فيهم ابن خفاجة : [6]

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم ... فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرية ... في أخذ مال مساجد وكنائس

ومن الطريف أن نجد بعض الفقهاء يقحمون أنفسهم في معارك هجائية مع بعض الشعراء ، فقد ذكر أن الفقيه ابن ميمون القرطبي كان يتهاجى مع ابن سهل اليكي ، ومما قال له فيه اليكي : [7]

قالوا : هجاك ابن ميمون فقلت لهم ... يا ليت شعرى من الهاجى فأدريه
قالوا الفقيه الذى من أرض قرطبة ... قلت : الفطيم ؟ فقالوا كلهم : إيه

---

[1] نفح الطيب ٦ / ١٩٦ .
[2] نفح الطيب ٣ / ٤٤٨ .
[3] هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك توفي ١٩١ هـ .
[4] هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيس الفقيه كان صاحب الإمام مالك وتوفي ٢٠٤ هـ .
[5] هو أصبغ بن الفرج . فقيه من كبار المالكية بمصر توفي ٢٢٥ هـ .
[6] نفح الطيب ٤ / ٢١٨ .
[7] المن بالإمامة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

ويقذع المخزومى الأعمى فى هجائه لأحد الفقهاء فيقول : [1]

طبنيكم هذا الفقيه محقق ... باق على عهد الصديق مقيم
شهدت عليه باللواط جماعة ... والله يعلم أنه مظلوم
ساء الفقيه بأننى متخلع ... ويسرنى أن الفقيه قطيم

زاد المسافر ص ١١٨ .

الفصل الثالث

هجـاء العلمـاء
وأصحـاب المهـن

- هجاء المعلمين والمؤدبين
- هجاء النحاة
- هجاء الفلاسفة
- هجاء أصحاب العلوم الطبيعية
- هجاء الكتاب

حمل الشعراء على طائفة من العلماء عرفوا بالتعصب المقيت ، والتزمت البغيض، ومالوا إلى الجدل العقيم الذى لا فائدة منه ، ولا طائل من وراءه فلا تجرى على ألسنتهم غير كلمات عفنة تنبيء عن جمود وقصور ، وقد أشار منذر ابن سعيد إلى هذا الصنف من العلماء فقال : [1]

عذيرى من قوم يقولون كلما ... طلبت دليلاً هكذا قال مالكُ
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لا تخفى عليه المدارك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
إن قلت قال الله ضجوا وأكثروا ... وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم ... أتت مالكاً فى ترك ذاك المسالك

ويسخر عبد المنعم بن مظفر الغسانى الجليانى من أولئك الذين يتظاهرون بالعلم ، ويلجئون إلى السفسطة الجوفاء ، ولا تتردد على ألسنتهم إلا كلمات بلهاء تدل على جهل وقلة إدراك ، يقول : [2]

يا ساهراً فى اقتناء علم ... يخطب منه مقام محكم
بدون هذا ترى فقيهاً ... فوسع الحكم ثم عمم
والبس مع الشهب طيلساناً ... واغمده فى المنكبين واختم
واجلس مع القوم فى جدال ... لا بالبخارى ولا بمسلم
إلا صياحاً ونقض كم ... ونظم " لا لا " وقول " لم لم "
فما أرى عندهم علوماً ... أكثر من " لا و " لا أسلم "

وكان ابن شهيد أحد الذين حملوا على هذه الطائفة من المعلمين والعلماء الذين لم يرزقوا إلا بأذهان صدئة ، وعقول عفنة ، وفد وصفهم بقوله [3] : " وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات عن اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن

---

(1) أدب الفقهاء ص ١٦٧ .
(2) الغصون اليانعة ص ١٠٧ .
(3) الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حمئة ، وأذهان صدئة ، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليمانى من الرقص والإيقاع ، والزمر على الألحان "

وإلى هذه الطبقة من العلماء يشير ابن شهيد فى قوله : [1]

ونـــاقل فقـــه لم يـــر الله قلـــبه   يظـن بـأن الديـن حفـظ المسـائل

وتبرم الشعراء بالنحاة الذين يتصيدون أخطاءهم ويقفون لهم بالمرصاد فيما ينظمون ، فهجوهم وسخروا منهم كما نجد فى قول أحد الشعراء [2] :

مـاذا لقيـت مـن المستعربين ومـن   قـياس قولهـم هـذا الـذى ابـتدعوا
إن قلـت قافـية بكـراً يكـون لهـا   معنى يخـالف مـا قـالوا ومـا وضـعوا
قالوا : لحنت وهذا الحرف منتصب   وذاك خفـض ، وهـذا لـيس يـرتفع
وضـربوا بـين عـبد الله واجـتهدوا   وبـين زيـد فطـال الضرب والوجـع

وكانت أعين الشعراء أشبه بعدسة تلتقط كل ما يقع أمامهم من عيوب ، فإذا أخطأ نحوى أو فقيه أو قارئ ، تصيد الشعراء هذا الخطأ ، وأبرزوه بطريقة تضمن له الذيوع والانتشار على ألسنة الناس .

هجاء الفلاسفة :

أنجبت الأندلس عدداً من كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وغيرهم ، وحظى هؤلاء الفلاسفة بمنزلة رفيعة فى عصورهم بيد أنه كان يوجد تيار يناصب الفلاسفة الأعداء ، يتزعمه الفقهاء وبعض رجال الدين ، وكانوا يروجون له فى أوساط الدهماء وعامة الناس ، كما كانوا يحاولون تأليب أصحاب السلطة على المشتغلين بالفلسفة . وترددت أصداء هذا التيار واتهموهم بالخروج على مبادئ الدين . وقد مال بعضهم إلى التعميم فى هجائه فلم يصرح بأسماء فلاسفة بعينهم ، بينما مال آخرون إلى التخصيص والتصريح ، على نحو ما نجد فى قول بعضهم يهجو مالك بن وهب الفيلسوف وكان على بن يوسف

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ٢٠٦ .

[2] نفح الطيب ٤ / ١٤٤ .

ابن تاشفين قد استدعاه من إشبيلية إلى (مراكش) وصيره جليسه وأنيسه مما أثار حقد بعض الناس وغضبهم ، فكان مما قيل فيه : [1]

دولة لابن تاشفين على ... طهرت بالكمال من كل عيب
غير أن الشيطان دس إليها ... من خباياه مالك بن وهيب

وكان (ابن جبير) أحد الذين شنوا حرباً ضارية على الفلاسفة ، فله شعر كثير في ذمهم وهجائهم حسبما يذكر عبد الملك المراكشي [2] ، وتدور معانيه في هجاء الفلاسفة حول اتهامهم بالمروق والإلحاد وإباحة المحظور ، وارتكاب ما ينكره الدين ، وأنهم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يعلنون كفرهم خوفاً من العقاب وإقامة الحدود عليهم ، فمن ذلك قوله : [3]

لأشياع الفلاسفة اعتقاد ... يرون به عن الشرع انحلالا
أباحوا كل محظور حرام ... وردوه لأنفسهم حلالا
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصون دمائهم أن لا تسالا
فيأتون المناكر في نشاط ... ويأتون الصلاة وهم كسالى

وتتسع حملة ابن جبير على الفلسفة لتشمل المشتغلين بها من الأندلسيين والمشارقة كابن سينا والفارابي ، فيقول : [4]

قد ظهرت في عصرنا فرقة ... ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين إلا بما ... سن ابن سينا وأبو نصر

ويتهم الفلاسفة مرة أخرى بالخروج عن الدين وادعاء الحكمة وشغل أنفسهم بالسفه فيقول : [5]

يا وحشة الإسلام من فرقة ... شاغلة أنفسها بالسفه

---

(1) نفح الطيب ٣ / ٤٧٩ .
(2) انظر : الذيل والتكملة ٥ / ٢ / ص ٦١١ .
(3) نفسه ٥ / ٢ / ص ٦١١ .
(4) نفح الطيب ٢ / ٣٨٥ .
(5) نفح الطيب ٢ / ٣٨٥ .

قــد نــبذت ديــن الهــدى خلفهــا   وادعـــت الحكمـــة والفلســـفه

ويرميهم باعتناق مذهب الطبيعة فيقول [1]

ضـــلت بأفعالهـــا الشـــنيعة   طائفـــة عـــن هـــدى الشـــريعة
ليســـت تـــرى فـــاعلا حكـــيماً   يفعـــل شـــيئاً ســـوى الطبـــيعة

وكانت تهمة (الزندقة) إحدى التهم التى ألح عليها الشعراء فى هجائهم للفلاسفة ، ولهم فيها صور طريفة كقول المخزومى الأعمى : [2]

مـــا لزنـــديق بـــنى فـــاعل   يـــذم مـــنى كـــل مـــا يحمـــد
يلحظـــنى شـــزاراً إذا مـــربى   كأنـــنى فـــى عيـــنه مســـجد

واتجه الشعراء بهجائهم إلى أهل الفلك والنجوم معبرين عن كراهية الشعر لهذه العلوم الجديدة ، فواجهوها بالسخط والعداء واستنكروا الاشتغال بها ، وسخروا منها ومن المهتمين بها " وفى هذا المظهر كان الشعر يمثل روح المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو كان حينئذ يعد ضرباً من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا واقليدس والمجسطى وعلم النجوم والفلسفة"[3].

وإذا كان ابن جبير أكثر من حملوا على الفلسفة والفلاسفة ، فإن ابن عبد ربه كان أكثر الشعراء عداء للفلك والجغرافيا ، فقد سخر من العلماء الذين قالوا بكروية الأرض وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخية المختلفة واتهمهم بالغواية والسخف ، ويعزو الدكتور إحسان عباس موقف ابن عبد ربه إلى ثقافته الفقهية فيقول : " وربما بدا لى أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمت منه إلى الانطلاق ، فقد أورثته ثقافة الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كل جديد وتعادى العلوم الدنيوية – إذا صحت التسمية – ويكفى أن نذكر صلته بمسلم ابن أحمد بن أبى عبيدة الليثى ، الذى كان عالماً بالحساب والنجوم ، وكيف

---

(1) نفسه ٢ / ٣٨٥ .
(2) زاد المسافر ص ١٢٥ .
(3) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ١٢١ .

عابه لاهتمامه بهذه العلوم ، ووصفه بأنه شاذ عن رأى الجماعة ، وتهكم بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه " [1].

ويتمثل هذا الموقف القائم على كراهية هذه العلوم فى هذه الأبيات التى يسخر فيها ابن عبد ربه من بعض معاصريه من العلماء المشتغلين بالفلك والجغرافيا والحساب على شاكلة ابن أبى عبيدة الليثى وابن موسى ومعاوية بن الشبانس ، فيقول : [2]

زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا ... لابل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الأرض فى فلك ... بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها ... فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى فى غوايته ... فوعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما ... أنى كفرت بما قالا وما فعلا

ويسخر ابن عبد ربه من المشتغلين بالفلك وعلم النجوم فيقول : [3]

إذا كان أخو النجم ... يرى الغيب بما ضمه
إلام يطلب الرزق ... طلاب العاجز الهمه
وهذى الأرض قد وارت ... كنوزاً عدة جمه
فلا والله ما لله ... خلق يحتوى علمه

وفى قصيدة ثالثة يسخر ابن عبد ربه من ابن عذراء وابن عباس وأشياعهما من المنجمين الذين تنبأوا بتأخر الغيث ذات مرة ولكن نبوءتهم لم تتحقق إذ سرعان ما هطل الغيث مدراراً ، وفى ذلك يقول : [4]

قل لابن عذراء السخيف الحجى ... زرى عليك الكوكب الثاقب
ما يعلم الشاهد من حكمنا ... كيف بحكم حكمه غائب

---

(1) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٤ .
(2) طبقات الأمم للقاضى صاعد ص ٧٤ .
(3) بهجة المجالس ٢ / ١١٨ .
(4) نفسه ٢ / ١١٩ .

فقـــل لعـــباس وأشــــياعه		كــيف تــرى ؟ قولكــم الكــاذب
خـــانكم كــيوان فــى فرســه		وغــركم فـــى لونــه الكاتــب
فكلكــم يكــذب فــى عــلمه		وكلكـــم أصـــله كـــاذب
مـــا أنـــتم شـــىء ولا عـــلمكم		قــد ضـعف المطلــوب والطالــب
تعالـــبون الله فـــى حكمـــه		والله لا يغلـــــبه غالـــــب

ويشارك سعيد بن العاصى المروانى ابن عبد ربه في حملته على علماء الفلك فيقول : [1]

مســـتحيل أن تـــدرك الأوهـــام		عـــلم غيـــب تغيـــب عـــنه الأنـــام
كـــيف يخـــتار عـــلمه بشـــرى		وهـــو عـــلم قـــد حـــازه العـــلاّم
لســت ممــن يقــول فــيه بجهــل		مـــا يقـــول الكـــندى والـــنظام
كــل مــن قــال إن للــنجم حكمــاً		لم يجــز فاعــلمن علــيه الســلام
ســـطر الأولـــون فـــيه أســـاطيـ		ـــر ولم يـــلهموا الرشـــاد فهـــاموا
إذ أرادو بالســـــند وبـــــالأر		كـــند والـــزيج روم مـــالا يـــرام
خــبطوا فــى أمورهــا خــبط عشــواء		حــين ضــلت فــى كــنهها الأوهــام
والــذى هيمــنوا بــه مــن قريــب		هذيـــــان آثـــــاره البرســـــام
إنمـــا الســـبعة الـــدرارى أجـــرا		م ولكـــــن لا تعقـــل الأجـــرام
وصـفوها بـالفهم وهـى شـخوص		مـــا لديهـــا فهـــم ولا إفهـــام
وحكـــوا أنهـــا تؤثـــر فـــى العـــا		لم ، والعـــالمون عـــن ذا نـــيام
كذبـــوا لـــيس للكواكـــب نقـــض		فـــى جمـــيع الـــورى ولا إبـــرام
والـــذى قالـــه الأوائـــل فـــيها		فهـــو مـــا لا يقولـــه الإســـلام
إنمـــا ســـخرت بقـــدرة بـــاريـ		ـهـــا إلى أن يحــين مــنها انصــرام
فهـى تجـرى فـى رتـبة لـيس تعدو		هـــا ولا يســـتحيل فـــيها الـــنظام
كــل يــوم تســاق فــيه إلى العــز		ب ســـراعاً كمـــا تســـاق الســـوام
لـيس يقضـى كـيوان أمـراً كمـا قـا		لـــوا ، ولا المشـــترى ولا بهـــرام
لا ولا الشـمس فـى الـبروج ولا الـبد		ر الـــذى ينجـــلى بـــه الإظـــلام
إنمـــا الأمـــر للـــذى خلـــق الخلـــق وتمضـــى بعـــزمه الأحكـــام

---

[1] نفسه ٢ / ١٢٠ وما بعدها .

ويلح الشعراء فى هجائهم للمشتغلين بالفلك والنجوم على فكرة واحدة محددة وهى أن الله عز وجل هو وحده المستأثر بعلم الغيب ، وأن أولئك العلماء لا يملكون من أمرهم شيئا ، وترددت هذه الفكرة عند ابن عبد ربه وعند ابن العاصى المراوى ، كما ترددت أيضاً عن عيسى بن قرلمان على نحو ما يبدو فى قوله : [1]

لو كان عند النجوم السابحات بما ... يجرى على الخلق من أبنائهم خبر
لم يحتلل بذراهم ريب حادثة ... بل كان ينجيهم الإنذار والحذر
ما كان ينجل منهم عالم ولداً ... فى ساعة ما بها نحس ولا كدر

ولم يقتصر الشعراء فى هجائهم على أصحاب العلوم النظرية ، بل اتجهوا بهجائهم أيضاً إلى أصحاب المهن العلمية كالكيمياء والطب والوراقة وغيرها ، فأبو إسحاق الإلبيرى يعرض بأحد الفقهاء لأنه كان يطلب الكيمياء [2] ، والأبيض – أو الصائغ – يهجو ابن زهر الحفيد والوشاح المشهور فيقول [3] :

يا ملك الموت وابن زهر ... جاوزتما الحد والنهاية
ترفقا بالورى قليلا ... فى واحد منكما الكفاية

ولدينا زجل لأبى الدباغ فى هجاء أحد الأطباء ، وفيه يقول : [4]

إن ريت من عداك يشتكى من تلطيخ
وتريد إن يقبر إحمل للمريخ
قد حلف ملك الموت بجميع أيمان
ألا يبرح ساعة من جوار دكان
ويربح روح ويعظم شان
وفساد النيا تحت ذاك التوبيخ

---

[1] بهجة المجالس ٢ / ١٢٠ .

[2] ديوان الإلبيرى ص ٥٩ .

[3] زاد المسافر ص ١١١ والأرجح أنهما لابن الصائغ لأن ابن زهر يرد عليه بمقطعة يتهمه فيها بالزندقة وهى الأقرب فى مهنة الفلسفة التى كان يشتغل بها ابن الصائغ (انظر زاد المسافر ص ١١٢) .

[4] المغرب ١ / ٤٣٩ .

بقـــياس الفاســـد وبديـــن الحمـــروج
يخـــد الصــــفراوى ويــــرد مفلـــوج
للصـــحيح لـــس يـــسمح بمـــريقة فـــروج
ويحـــيل المحمـــوم عـــلى أكـــل البطـــيخ

وغـــنى إن طـــبا فـــيرد يســـعى
والمـــنى يطلـــق فـــى مـــروج نـــرعى
يسـقى مـا يسـقيه يحتـبس فـى الأمعـا
احتـباس أيـدى العـار بحـال التوبـيخ

* * *

قـــوه تنـــتقى مـــن عطـــاه تنقـــيا
ويـــرى أكـــباده فـــى الطـــيس مرمـــيا
تنـــبرى أنـــباط وتقـــع ملويـــا
مـــثل شـــعر العانـــا إن خلـــق بالزرنـــيخ

* * *

وفـى هـذا الـزجل يتهم أبو على الدباغ مهجوه بالجهل بأسرار صنعته ، وفشله فى مداواة مرضاه ، واللافت فيه روح السخرية والفكاهة الحادة الموجعة، " وفى هذا الزجل تقع على بعض الصورة الطريفة الساخرة ، كصورة ملك الموت وهـو لا يـبرح دكـان الطبيـب ، ومـثل هـذه الصـورة الـتى يحيل فيها الطبيب الشـخص المحمـوم عـلى أكل البطيخ ولا يسمح فيها للسليم بـ " مريقة فروج " وهو وصف مستمد من بيئة الزجال بأجوائها المحلية " [1]

وفى مهنة الوراقة والورّاقين يقول ابن سارة الشنتريني : [2]

أمـا الوراقـة فهـى أنكـد حـرفة	أغصـانها وثمارهـا الحـرمان
شـبهت صـاحبها كإبـرة خـائط	تكسـو العـراة وجسـمها عـريان

---

(1) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٦٢٥ .
(2) قلائد العقيان ص ٢٦٠ .

ويتضح مما أوردناه من أمثلة أن الشعراء لم يصدروا فى هجائهم عن عداء شخصى – فى أغلب الأحوال – بدليل أن ابن عبد ربه كان على صلة وطيدة ببعض هؤلاء العلماء ومع ذلك هجاهم وإنما كان هجاؤهم تعبيراً عن كراهيتهم لهذه العلوم فى حد ذاتها ، ولم تكن هذه الكراهية موقفاً عاماً عند جميع الشعراء ، ولكنها ارتبطت بأصحاب الثقافات الدينية والفقهية . وكذلك الحال بالقياس إلى الهجاء الذى وجه إلى المعلمين وغيرهم من العلماء ،فهو ليس هجاءاً لأشخاص بعينهم بقدر ما هو نقد أو ذم لبعض الصفات المزرية كادعاء العلم أو التعصب البغيض أو السفسطة الفارغة .

هجاء الكتاب :

استأثرت صنعة الكتاب بهجاء كثير من الشعراء وذلك بسبب التنافس التقليدى بين الشعراء والكتاب ، ولم يكن الشعر وحده كافياً لكى يتبوأ الشاعر منصب الوزارة أو غيره من المناصب الخطيرة فى الدولة ، فقد كانت " مهمة الوزارة تتصل – قبل أى شىء آخر – بالكتابة ، فإذا كان الكاتب مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة الوزارة ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك ، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة . "[1]

وقد أثارت هذه التفرقة حفائظ الشعراء ، فحملوا على الكتاب ، وتتبعوا عثراتهم وسقطاتهم ، واتهموهم بالجهل وعدم الدراية بصنعتهم على نحو ما نقرأ فى قول عقيل بن نصر :[2]

قلب الزمان فبان بالآداب ومحارسوم محاسن الكتاب
وأتى بكتاب لو استخبرتهم لرددتهم طراً إلى الكتاب

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ٨٢ .

[2] بغية الملتمس ص ٤٣٧ .

ويحتفظ صاحب (زاد المسافر) بصورة طريفة لأحد الكتاب الجهلاء — يدعى (ابن لجين) — وكان كاتبا للأمير أبى حفص الموحدى ، وأمره ذات يوم أن يكتب فى أمر خديم لأحد إخوانه كان وجه عنه لشغل ، فلما فرغ عنه قال له : اكتب معه إلى مخدومه أنا قد صرفناه بعد أن فرغ مما وجهناه فيه عنه ، فكتب :" وكنا قد استدعينا فلاناً ، فلما قضينا منه وطراً صرفناه إليكم".

فقال له لما وقف عليه : " هل فعلنا به مالا يكنى ؟ " وقطع عليه الكتاب فكتب فى آخره : " فلما قضى نحبه انصرف إليكم " . كما كتب عن مخدوم له : " فاشتهدوا " يريد الأمر بالاجتهاد . [1]

وكان هذا الكاتب وأمثاله مادة غنية للشعراء ، وفيه يقول أحدهم [2] :

وهل الكتابة يا ابن ألف لئيم	إلا نتيجة فقرة وقسيم ؟
وأراك قد سميت نفسك كاتباً	خلواً من المنثور والمنظوم
حتى كتبت الإجتهاد غباوة	بالشين معجمة مكان الجيم
لو أننى حكمت فيك فنطت ما	كتبت يداك بعنقك المخزوم
وجعلت من يمشى وراءك قائلا	هذا جزاء الكاتب المشؤوم
يا أيها الشيخ المعظم قدره	(والشؤم يهدم سور كل زعيم)
إحذر – وقاك الله – شدة شؤمه	فالكاتب المشؤوم شر خديم

وكانت صفة (الشؤم) هذه إحدى الصفات المعيبة التى يكثر الشعراء من إلصاقها بالكتاب ، فنراها تتردد فى هجاء الأعمى المخزومى لابن أبى الخصال كاتب على بن يوسف بن تاشفين ، وأبرز كتاب عصر المرابطين ، ويميل المخزومى فى هجائه إلى الإفحاش كعادته فى هجائه ، فيقول : [3]

طويس الشؤوم يا ابن أبى الخصال	لقد نكبت عن كرم الخصال
ترغب فى النقائص والمخازى	وتزهد فى المكارم والمعالى
نكحت حزوراً وسلكت طفلا	ولم تقلع وشيبك فى اكتهال

---

[1] زاد المسافر ص ١٣٤ .
[2] نفسه ص ١٣٤ .
[3] خريدة القصر ٢ / ٢٥٥ – ٢٥٦ .

ففـــى وجعـــاك آثـــار الفياشـــى   كمـــا فـــى البـــنر آثـــار الحـــبال

ونقع على هذه الصورة المزرية لأحد الكتاب عند ابن صارة الشنتريني إذ يقول : [1]

وأغـــر ينـــتحل الكـــتابة خطـــة   مـــتوقد كالحـــية النضـــناض
عشـق السـواد فأصبحت أسـنانه   تشرى السـواد ببيع كـل بـياض
فـإذا شـحا فـاه رأيـت خنافسـاً   يـأوين مـن فـيه إلى المـرحاض

ولابن شهيد بعض مقطعات في هجاء الكتاب ، منها مقطعة في هجاء الكاتب أحمد بن جعفر بن عباس الذى كان وزيراً وكاتباً لزهير الصقلبى خليفة خيران فى حكم المرية سنة ٤٢٥هـ ، وقد اشتهر عن هذا الكاتب مهارته في كتابة الرسائل ، وغناه الفاحش ، وبخله وغروره ، وحدث أن اجتمع هذا الوزير الكاتب بابن شهيد وبعض رفاقه . ولكنه لم يرض بما جاءوا به على البديهة مما أثار غضبهم ، فهجاه بعضهم فأفحش في هجائه ، كما هجاه ابن شهيد فقال : [2]

أبـــو جعفـــر رجـــل كاتـــب   مليح شبا الخـط ، حلـو الخطابـه
تمـــلأ شـــحماً ولحمـــا ومـــا   يلـــيق تملـــؤه بالكـــتابه

ويرسم ابن شهيد هذه الصورة الكريهة لكاتب آخر فيقول : [3]

ويـح الكـتابة مـن شـيخ هبـنقة   يلقـى العـيون بـرأس مخـه رار
ومـنتن الـريح إن ناجيـته أبـدا   كأنمـا مـات فـى خيشـومه فـار

وفى ديوان ابن هانىء نقع على قصيدة يهجو فيها الوهراني كاتب الأمير جعفر بن على المعروف بابن الأندلسية . وكان والياً لمدينة المسيلة . وهى قصيدة طويلة إذ يبلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين بيتاً ، بدأها بقوله : [4]

---

(1) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .
(2) الإحاطة ١ / ٣٣٨ . ديوان ابن شهيد ص ٤٩ ، ٥٠ .
(3) الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٩٦ .
(4) ديوان ابن هانئ ص ٤٠١ .

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وبعد مقدمة تأملية قصيرة يخلص ابن هانئ إلى هجاء الوهراني ، فيرميه بجلافة اللفظ ، وخطل الرأى ، وفساد التأليف والنظم ، ويقول : [1]

إن أيام دهرنا سخفات فهى أعوان كل وغد سخيف
زمن أنت ، يا أبا الجعر ، فيه ليس من تالد ولا من طريف
إن دهراً سموت فيه علواً لوضيع الخطوب ، وغد الصروف
إن شأوا طلبته فى زمان العـ ـلاك عندى ، لشأوبين قذوف
إن رأياً تديره لمعنى بضلال الإمضاء والتوقيف
إن لفظاً تلوكه لشبيه بك فى منظر الجفاء الجليف
كاذب الزعم مستحيل المعانى فاسد النظم ، فاسد التأليف
أنت لا تغتدى لتدبير ملك إنما تغتدى لرغم الأنوف
نلت ما نلت لا بعقل رصين فى المساعى ، ولا برأى حصيف

ويعرض ابن هانئ بمهجوه ويرميه بتهمة خطيرة هى تحريف القرآن فيقول : [2]

لم أحارب نور الهدى بالدياجى وحروف القرآن بالتحريف
مثل هذا العميد بالجبت والطاغوت منهم ، والهائم المشغوف

وطريقة ابن هانئ فى هذه القصيدة لا تكاد تختلف عن طريقته فى أغراضه الأخرى ، فهو يميل إلى استخدام الألفاظ القوية الطنانة (قذوف .. جليف .. رجوف .. الجبت .. إلخ) ولكن حظه من التخيل محدود ، ومعانيه مألوفة مكررة ، وصوره تفتقر إلى الجدة والابتكار ، فلا نقع على صورة لها خصائص صور ابن الرومى مثلاً ، ولا نرى فى تصويره لشخصية المهجو ما نراه عند شعراء الهجاء البارزين من تفنن وبراعة ، ولا نظفر فى هجائه بدعابة ساخرة ، أو نكتة عابثة ، أو صورة تخفى وراءها خيالاً خصباً .

---

[1] نفسه ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

[2] ديوان ابن هانئ ص ٤٠٤ .

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعى

- نقمة الفرد على المجتمع
- الرذائل الخلقية
- التصدى لمظاهر الفساد
- هجاء البخلاء
- هجاء الأهل والأقارب
- هجاء المظاهر الحضارية
- هجاء المغنين
- هجاء المدن

الهجاء الاجتماعي ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم . وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية أو المثالية ، بل بما فيها من فساد واختلال ، فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل ، ولا يستهويه إلا المثالب ومواضع القصور والنقص ، فيلتقطها بعينه الناقدة ، ويرى فيها مادة غنية بالصور ، فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز .

والهجاء الاجتماعي لا يقف عند حدود الذاتية المطلقة ، ولا يأخذ فقط صفة التشهير كما يرى بعض الباحثين [1] ، ولكنه يتعدى ذلك إلى مفهوم أوسع وأشمل ؛ فهو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى النقد الذاتي . كما أنه يكشف بصورة أو بأخرى عن كثير من جوانب الفساد والقصور في المجتمع .

وتتنوع ضروب الهجاء الاجتماعي ، فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجموع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال في المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيداً ، وأعمقها تجربة إنسانية [2] ، وقد راج هذا النوع من الهجاء في العصر العباسي وما تلاه من عصور حيث اقترنت الحضارة بشيوع كثير من الرذائل والمفاسد ، فنقم بعض الشعراء على المجتمع ، ووصموه بالفساد والانحلال ، " واتجه الهجاء إلى ضرب من التشاؤم والسخط على الحياة والمجتمع والناس جميعاً ، بل على الدهر ، ولكنه لم يكن سخطاً إيجابياً عنيفاً ، بل كان سخطاً سلبياً " [3].

وراج هذا النوع من الهجاء أيضاً في الأندلس . فابن عبدون يرمي أهل عصره بالفساد ، فيرى أن الناس فسدت أبدانهم ، وأنه لا يصلح هذه الأمور إلا نبي ، ويتتبع أوجه الخلل والقصور في مجتمعه ، فيعيب على بعض الناس شرب الخمور في المقابر . وجلوسهم فيها لاعتراض النساء ، ويشير إلى تفشي

---

[1] الشعر في عصر المرابطين والموحدين ص ٢٥٢ .

[2] فن الهجاء لايليا حاوي ص ٩ .

[3] تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري . تأليف د. محمد زغلول سلام . ص ٣٢ .

الفسق وضروب الغش في السلوك والمعاملات ، وكذلك صنوف الحيل ونقص الذمة في البيع والشراء ، وأخذ الجعائل ، وأخذ الصيرفيين للربا . "[1]

وينحي ابن عربي باللائمة على الزمان وأهله فيقول : " زمان شر ، قلت فيه لقمة الحلال ، وكثر فيه الشره والكلب في قلوب الناس ، فلا بطن يشبع ولا نفس تقنع ، ولا عين تدمع ، ولا دعاء يسمع " .[2]

ولدينا أمثلة كثيرة تمثل سخط الشعراء على الزمان وأهله ، ويمثل ابن عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل ، " فعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، ومنا شهر عنه من تقوى وديانة ، فقد كان – فيما يبدو – ضيق العطن ، حاد الطبع سريعا إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ، كثير الشكوى من الزمان ، سيء الظن بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات دون الحسنات في زمانه وأهله " .[3]

إن تجربة ابن عبد ربه في الحياة دفعته إلى درجة بعيدة من التشاؤم والسخط فهو يرى أن الخير قد انعدم في الدنيا ، وأن أبناءها ليسوا إلا كلاباً توزعوها فيما بينهم :[4]

وأيام خلت من كل خير	ودنيا قد توزعها الكلاب
كلاب لو سألتهم تراباً	لقالوا عندنا انقطع التراب

ويشارك السميسر ابن عبد ربه رأيه في إساءة الظن بالناس وفي وجوب تحاشيهم واجتنابهم فيقول :[5]

تحفظ من ثيابك ثم صنها	وإلا سوف تلبسها حدادا
وميز عن زمانك كل حين	ونافر أهله تسد العبادا

---

(1) ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة ص ٦٠ .

(2) روح القدس في محاسبة النفس ص ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ١٤ ص ٣٥.

(3) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة – ص ١٨٥ .

(4) العقد الفريد ٢ / ٣٤٢ .

(5) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٥ .

وظـــن بســائر الأجـــناس خـــيراً وأمـــا جـــنس آدم فالــــبعادا

ويعلـن عـبد العزيز على الجذامى (ت٧٢٥هـ) سخطه على الدنيا وأبنائها فيقول : [1]

أبـــناء دنـــيا لا خـــلاق لهـــا مـــا أشـــبه الأبـــناء بـــالأم
جربـــتهم وخـــبرتهم زمـــناً فتركـــتهم بغضـــاً عـــلى شـــلم
لكـــن دهـــرى اضـــطرنى لهـــم فصـــحبتهم كـــرهاً عـــلى رغـــم

أما عبد الواحد الواعظ الإشبيلى (ت٦٣٧هـ) فيصب سخطه ولعناته على كل من فى الوجود فيقول : [2]

إن كنـــت تشـــكو بـــبرد وقلـــة فـــى الـــبرود
فادفـــأ بلعـــن كـــثير لكـــل مـــن فـــى الوجـــود

ويـنقم ابـن الخطيـب على أهل زمانه الذين لا يقدرونه حق قدره ، ويرى نفسه بينهم كحى بين أموات فيقول : [3]

أحـــى بـــين أمـــوات ركـــود ويقظـــان لـــدى زمـــن نـــؤوم
أدور فـــلا أرى إلا نـــياماً كـــأنى بـــين أصـــحاب الرقـــيم
عفـــت أعـــلام آدابـــى وعـــلمى بهـــم فبقيـــت كالرســـم القديـــم

واقـترن بـنقمة الشعراء عـلى الـناس والـزمان نقمـة أخرى على الأصدقاء والإخـوان ، فـنعوا علـيهم خداعهم ومخاتلتهم ، وإضمار السوء لهم ، والتظاهر بالحـب والـولاء عـلى نحـو مـا نجـد فـى قـول جعفر بـن إبراهـيم بـن الحاج اللورقى : [4]

أخ لى كنـــت آمـــنه غـــروراً يســـر بمـــا أســـاء بـــه ســـرورا
هـــو الســـم الـــزعاف لشـــاربيه وإن أبـــدى لـــك الأرى المشـــورا

---

[1] درة الحجال ٣ / ١٣٦ .
[2] اختصار القدح ص ٢١٠ .
[3] التشبيهات ص ٦١٨ .
[4] خريدة النصر ٢ / ١٤٥ .

ويوسعني أذى فأزيد حلما | كما حد الذبال فزاد نورا
ويقول أيضاً : [1]

أسهر عيني ونام في جدل | مدرك حظ سعى إلى أجلي
دنياه موقوفة عليه فما | يطورها طائر لدى أمل
قد لفقت بالمحال فاجتمعت | من خدع جمة ومن حيل
كم محنة قد بليت منه بها | وهو يرى أنها يد قبلي

ويعبر ابن الخطاب عن سوء ظنه في الإخوان والأصحاب فيقول : [2]

إذا حصلت إخواني جميعاً | وجدتهم كأضغاث المنام
فمن أعددته لمهم أمري | كإخوان التحية والسلام

أما ابن عبد ربه فقد آثر أن يبتعد عن أصحابه لأنه أدرك بعد تجربة طويلة أن أخاه الحقيقي هو درهمه الذي يقبض عليه بيده : [3]

قالوا نأيت عن الإخوان قلت لهم | مالي أخ غير ما تطوي عليه يدي

وهناك ضرب آخر من الهجاء يدور حول الرذائل الخلقية ، ويصور بعض الآفات الاجتماعية كشيوع الزنا واللواط والسرقة ، وميل بعض الناس إلى الكذب والبخل ، وغير ذلك من الصفات المستهجنة ، ونمثل لهذا النوع بأبيات أبي جريزة محفوظ بن مرعي الشريف التي يعرض فيها بقوم دأبوا على ارتكاب الفحشاء فيما بينهم دون مراعاة دين أو حرمة ، وفيها يقول : [4]

يا دائبين على الفحشاء ويلكم | ألبستم شيخكم ثوباً من العار
الإبن في داركم صهر لوالده | والأخ قد ينثني عن كلبه الحار
ما تحفظون أباكم في حلائله | والكلب عرس لحاه الله من دار
أحييتم سنة دان المجوس بها | فعظموا مثلهم بيتاً من النار

---

[1] نفسه ٢ / ١٤٥ .
[2] التشبيهات ص ٢٧١ .
[3] العقد الفريد ٣ / ٣١ .
[4] زاد المسافر ص ١٢٣ .

ويشير المخزومي الأعمى إلى استشراء آفة اللواط في هجائه لابن القصير فيقول مضمناً أحد أبيات الشعر الذائعة : [1]

لابن القصير مع ابنه وصغيره   حجج بها سوق الفسوق تقوم
ألقاه يوماً تحت أسود حالك   فبدا يعاتبه لذا ويلوم
فأجابه متعجباً وجوابه   بيت على مر الزمان قديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ويعرض أبو عيسى المربيطري بأحد الأشخاص المصابين بهذا الداء وقد تزوج بإحدى العاهرات ، فيقول : [2]

لا تعذلوه على ابتناء   بعرسه العاهر الهجين
أليس مثل الغزال حسناً   لابد للظبي من قرون

ومن مظاهر الفساد التي تصدى لها الشعراء انتقاد تصرفات بعض رجال الدين الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، وتساهلوا في الأحكام ، واستحلوا المحرمات ، وقد مرَّ بنا أمثلة كثيرة لهذا النوع في هجاء الفقهاء والقضاة ، ونمثل لذلك أيضاً بقول أبي بكر بن مغاور الشاطبي : [3]

إنا إلى الله ماذا حل بالدين   من الطوال اللحى البيض العثانين
باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه   وغيروا الشرع بالله للدين
أضحت شهادتهم بالزور ناطقة   إن الشهود لأعوان الشياطين

ويشير عبادة إلى استشراء داء الكذب عند بعض الناس فيقول : [4]

مذ كنت لا تنفك تخبر   عن حديث لم يكن
فكأنما غذيت طفلا   بالكذاب مع اللبن

---

[1] زاد المسافر ص ١١٨ .
[2] المغرب ٢ / ٣٧٨ .
[3] زاد المسافر ص ٨٠ .
[4] التشبيهات ص ٢٤٨ .

ويحمل ابن خفاجة على طائفة من الناس يتصفون بالجهل والغباء : [1]

دع عنك من لوم قوم لست تخبرهم ... إلا تكشف ستر الغيب عن عيب
عوج على الدهر هوج غير أنهم ... سود من الجهل بيضان من الشيب

ويقول : [2]

يا ضاحكاً ملء فيه جهلا ... أحسن من ضحكك البكاء
وهنت حساً وهنت نفساً ... فلا ذكاء ولا زكاء

ومن الصفات الذميمة التى تناولها الشعراء فى هجائهم صفة الزهو والكبر عند بعض الناس ، وقد نظم أبو إسحاق الإلبيرى قصيدة فى رجل يجر ثيابه زهواً وخيلاء قال فيها : [3]

ما عيدك الفخم إلا يوم يغفر لك ... لا أن تجر به مستكبراً حللك
كم من جديد ثياب دينه خلق ... تكاد تلعنه الأقطار حيث سلك
وكم مرقع أطمار جديد تقى ... بكت عليه السما والأرض حين هلك

كما أكثر الشعراء من هجاء ثقلاء الظل ، وهى صفة ذميمة لاسيما إذا اجتمعت معها صفات أخرى كالرقاعة والسخف على نحو ما يبدو فى قول أبى الحكم بن المظفر : [4]

وهو على خفة به أبداً ... معترف أنه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والـ ... سخف ، وأما بغير ذاك فلا
إن أنت فاتحته لتخبر ما ... يصدر عنه فتحت منه خلا
فنبه إن حل خطة الخسف والـ ... هون ورحب به إذا رحلا
واسقه السم إن ظفرت به ... وامزج له من لسانك العسلا

---

[1] ديوان ابن خفاجة ص ٧٧ .
[2] نفسه ص ٦٨ .
[3] ديوان الإلبيرى ص ٧٠ .
[4] نفح الطيب ٢ / ١٣٤ .

وبرع الشعراء فى تناولهم لهذه الصفة كما يبدو فى قول أمية بن أبى الصلت الإشبيلى : [1]

لى جليس عجبت كيف استطاعت ... هذه الأرض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرها وبقلبى ... منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ ... ه ولكن أصونه وأجله

وكانت صفة (البخل) إحدى الصفات التى أكثر الشعراء من تناولها فى قصائدهم ، ومما يوضح كثرة هجاء الأندلسيين بهذه الصفة ما ذكره المقرى نقلاً عن ابن سعيد فى وصفه لأخلاق أهل الأندلس وعاداتهم فقال [2] : " وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ... ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فآوينا إليها ، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشترى لكم فحماً تسخنون به فإنى أمضى فى حوائجكم، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشترى به فحماً ، فأضرم ناراً ، فجاء ابن له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام مال الناس ، والضحر للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدهما على ثيابه ، فدفع كساءه إلى ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ويده فى الكساء، فقلت ذلك لوالدى ، فقال هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء ، وفضلك على نفسه ، ثم فكر فى أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذه كساءه خوفاً من انفصالك بها ، وهو نائم. وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل " .

---

[1] نفح الطيب ٢ / ١٣٤ .

[2] نفسه ١ / ٢٢٣ .

وكان هذا الحرص الذى أشار إليه ابن سعيد مدعاة لاستثارة قرائح الشعراء ، فأكثروا من إلحاق صفة البخل بمهجويهم ورسموا لهم كثيرا من الصور الساخرة ، فمن ذلك قول الغزال : [1]

قصدت بمدحى جاهداً نحو خالد ... أؤمل من جدواه فوق منائى
فلم يعطنى من ماله غير درهم ... تكلفه بعد انقطاع رجائى
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة ... إذا استخرجت من شدة ببكاء

ويصم سعيد بن الفرج الرشاش مهجوه بهذه الصفة فيقول : [2]

إنك لا تعرف الجميل ولا ... تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يرتجى نداك لكالحا ... لب تيساً من شهوة اللبن

ويعبر محمد بن شخيص عن خيبة رجائه فيمن قصدهم راغباً فى عطائهم فيقول : [3]

قست بالشعر معشراً فإذا هم ... صور الإنس فى طباع الحمير
كلما جئتهم لأنشد شعرى ... طمعاً من نوالهم باليسير
فكأنى وضعت فلكة بوق ... فى فمى أو ضغطت أنبوب كير

وللمخزومى الأعمى غير قصيدة يهجو فيها بنى سعيد ويرميهم بالبخل ، وقد ذكر ابن سعيد أن جده عبد الملك كان كثير الإحسان له مستحفظاً من لسانه، وبعد ذلك فما سلم من ذاته ، ومن هجائه فيهم قوله : [4]

لا ترجون بنى سعيد للندى ... فالظل أفيد منهم للسائل
فلقد مررت على منازلهم فما ... أبصرت منها غير بعد منازل
قوم مصيبتهم بطلعة وافد ... وسرورهم أبداً بخيبة وافد

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٠ .
(2) نفسه ص ٢٤١ ٢٤٢ .
(3) نفسه ص ٢٤٢ .
(4) المغرب ١ / ٢٣١ .

وفيهم يقول وقد أسخنوه جوارهم :[1]

أبني سعيد قد شقيت بقربكم ... فلتتركوني حيث شئت أسير
أفنى المدائح فيكم لا وعدكم ... يقضى ، وقلبي في المطال أسير
أعطيتم نزراً على طول المدى ... ويقول وغد : إنه لكثير
ولشد ما عرضتموني للعنا ... فرس عتيق عاشرته حمير
فإذا صهلت غدا النهاق مجاوبي ... يا رب أنت على الخلاص قدير

واصطنع بعض الشعراء طريقة القدماء في تناولهم هذه الصفة كقول ابن المرعزى النصراني :[2]

نزلت في آل مكحول وضيفهم ... كنازل بين سمع الأرض والبصر
لا تستضيء بضوء في بيوتهم ... لو لم يكن لك تطفيل على القمر

وقد نظم الشعراء مقطعات كثيرة في التندر بالبخلاء سنعرض لها في حديثنا عن هجاء التندر والسخرية .

هجاء الأهل والأقارب :

اتجه الشعراء الهجاءون إلى هذا الضرب من الهجاء الذى يكشف عن بعض جوانب الخلل والقصور في علاقة الأزواج بزوجاتهم أو الآباء بأبنائهم فهو المظهر السلبي لما ينبغي أن تكون عليه الأواصر الاجتماعية التي تقوم على أسس من المودة والرحمة ، ونلاحظ أن أغلب نماذج الهجاء التي تتصل بهذا الموضوع نظمها شعراء تقوم شهرتهم على فن الهجاء ، كالأعمى المخزومي ، وابن حزمون وابن صارة الشنتريني ، وعلى بن بسام وغيرهم .

ونجد بعض هؤلاء الشعراء ينظمون شعراً في هجاء زوجاتهم ، فنرى ابن صارة الشنتريني يهجو زوجته بعد أن طلقها فيثني على الزمان الذى أسدى

---

[1] نفسه ١ / ٢٣١ .

[2] خريدة القصر ٢ / ٩١ .

إليه هذا الصنيع ، ويرميها بالنفاق والخبث ، ويشبهها بالذئبة كما يشبهها بالحية الرقشاء ، فيقول : [1]

أما الزمان فرق لي من طلة [2] | كانت تطل دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند نفاقها | والحية الرقشاء عند عناقها

وارتبط بهذا الاتجاه – أعني هجاء الزوجات – اتجاه آخر يرمى إلى هجاء المرأة عموماً والانتقاص من شأنها ، وتقوم معانيه على نقيض المعانى التى تداولها شعراء الغزل ، فيذم الشاعر طيف محبوبته بدلاً من أن يمنى نفسه بزيارته ، ويجد فى فتور ألحاظها شيئاً منفراً لأنه أصاب أعضاء جسده بالفتور ويزرى بصفات المرأة ، فيرى أن الجيفة تستقذر رائحة أنفاسها الكريهة ، وأن ما تتخذه من الحلى وأدوات الزينة إنما هى شهادات زور تحاول أن تغطى بها قبحها ودمامتها ، وغالباً ما يصوغ الشاعر أبياته فى أسلوب هزلى وكأنه يتقيل منهاج ابن الحجاج شاعر بغداد الذى عرف باتجاهه الهزلى الساخر ، ونستطيع أن نجد هذه المعانى التى أشرنا إليها فى قول محمد بن مسعود – وهو من شعراء الذخيرة : [3]

ما زارني طيفك يا هذه | إلا تمنيت بألا يزور
فتور ألحاظك ذاك الذى | أعار أعضائى هذا الفتور
وقدك المائس فوق النقا | قد فؤادى الهائم المستطير
كم قائل : صفها لنا واختصر | ولا تطول ، قلت شمس القدور
قيل وزد ، قلت لهم إنها | فى سعة مثل الدنا والبحور
تستقذر الجيفة أنفاسها | وتجعل الفسو مكان البخور
للكحل والغمرة فى وجهها | والطيب والزين شهادات زور
فقراء شقراء على سمرة | فهل ترى يا سيدى من فطور ؟!

---

(1) الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٤٤ .

(2) الطلة : الزوجة .

(3) الذخيرة ١ / ١ / ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

ويرسم يحيى بن الحكم الغزال هذه الصورة المزرية لإحدى النساء فيقول :[1]

جرداء صلعاء لم يبق الزمان لها ... إلا لساناً مُلحّاً بالملامات
لطمتها لطمة طارت ؟امتها ... عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشارى إذا برقت ... بالمأزق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات فى جوانبها ... كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام العيس جرده ... طول السفار وإلحاح القتودات

ويصور أحمد بن نعيم إحدى النساء تصويراً هزلياً ساخراً يذكرنا بصور ابن الرومى فيقول :[2]

كأن كلتا صفحتى وجهها ... ركبتا من كوبتى نافخ[3]
لو كنت نبتا كنت من حرمل ... أو أكلا كنت من الكامخ[4]

أما ابن خفاجة فهو يهجو ذلك الصنف من النساء اللائى يتسترن بالزينة والحلى لإخفاء أخلاقهن وطباعهن الرديئة الشاذة ، يقول :[5]

ألا بكى الدر فوق حالية ... حلى بها العقد شر ما حلى
ترى بها ما يمر من خلق ... مخبأ تحت منظر يحلى
قد راق مرأى وساء مختبراً ... فهل ترى أزهرت بها دفلى

ولم يتورع بعض الشعراء عن هجاء آبائهم وأبنائهم وإخوتهم على شاكلة على بن بسام الذى يصفه صاحب الذخيرة بأنه " كان باقعة زمانه ، لم يسلم

---

[1] التشبيهات ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
[2] نفسه ص ٢٤٦ .
[3] الكوبة : الطبل الصغير . ولعله أراد بها هنا آلة موسيقية تنفخ بالفم .
[4] الحرمل : نبت كالسمسم ، يمتنع على الأكلة وفى ذلك يقول طرفة : (هم حرمل أعياء على كل آكل) . والقامخ نوع من الإدام يتعيفه الأعراب (هامش التشبيهات ص ٢٤٦) .
[5] ديوان ابن خفاجة ص ١٥١ .

مـن هجائـه أمير ولا وزير من أهل بيته صغير ولا كبير " [1] وقد اشتهر بهجائه المقذع فى أبيه وأخيه مما جعل ابن بسام يحجم عن ذكره .

ونجـد الأعمـى المخـزومى يهجو ابنه هجاء حاداً ، فينعته بجلافة الطبع وكلال الذهن وسوء الخلق ويتندر عليه فى أسلوب لاذع فيقول : [2]

الحق أبلج ليس أنت وحق من	أحبابك الأجلاف ممن يفلح
لا تهتدي بفضيلة ، لا ترعوي	بملامة ، لا أنت ممن يصلح
يزداد عقلك ما كبرت تناقصاً	وتلج فى صمم إذا ما تنصح
أكل وسلح كل حين لا ترى	لسواهما ما دمت حياً تطمح
أسخنت عين المجد يا ابن عميرة	ولقد تقر عيونه لو تذبح

وشارك النثر فى هذا النوع من الهجاء ، فأبو عبد الله محمد بن مسعود يكتب رسالة هزلية يتهكم فيها بابنه إذ توجه إلى المغرب ، وقد بلغه خلع عذاره فى البطالة والشرب يركب فيها طريقة الجاحظ فى السخرية ويحاكيه فى رسالة التربيع والتدوير فيقول [3] : " فأخبرنى يا تاجر البحرين ، وسمسار العراقين ، ودليل الحجازين ، وخريت الفلاتين ، وابن عظيم القريتين ، أتعس بك من خراج ولاج ، ماض على السرى والإدلاج ... وصف لى موقع الشمس فى العين الحمئة ، وكيف كان مخلصك من تلك البلاد الوبئة ، وكيف رأيت مدينة يونس وجنة إرم ، والبركان المؤنس وجزيرة الغنم ، وكيف كان دكك على المجوس ، بضروب الشعوذة والناموس ... " .

هجاء المظاهر الحضارية :

إذا كان الشعراء قد أقبلوا على وصف المظاهر الحضارية وتغنوا بها باعتبارها مستحدثات جديدة ساهمت فى إسعاد الناس ، وإدخال البهجة إلى نفوسهم ؛ فإن فريقاً آخر من الشعراء لم ترق له بعض هذه المظاهر . فأظهر

---

[1] الذخيرة ١ / ١ / ص ١٤٣ .

[2] المغرب ١ / ٢٢٩ .

[3] الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٠ وما بعدها .

إزاءها روح العداء والكراهية . على شاكلة أبى الحسن مختار بن عبد الرحمن الرعينى الذى يصب لعناته على الحمام حين زاره يوماً فجلس شخص من جهال العامة إلى جانبه ، وأساء عليه الأدب ، فقال : [1]

ألا لُعن الحمام داراً فإنه ... سواء به ذو الجهل والعلم فى القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها ... مصابيح لم تنفق على طلعة الفجر

وعبر الشعراء عن كراهيتهم لبعض الأطعمة كقول المنفتل فى هجاء المرقاس : [2]

لا آكل المرقاس دهراً لنا ... وبل الورى فيه قبيح العيان
كأنما صورته إذا بدت ... أنامل المصلوب بعد الثمان

وسلك بعض الشعراء مسلك ابن الرومى فى ذم الورد ، فمن ذلك قول ابن خفاجة : [3]

ألا قل لذات الخال عنى إنى ... لأرغب عن خال تطلع فى خد
وزهدنى فى ذلك الخال نسبة ... أراها لخال الخد من جعل الورد

ونظم الشعراء مقطعات فى هجاء الخدم والعبيد والسقاة ، كقول ابن خفاجة فى أسود وجهه فى حاجة فأبطأ : [4]

قبحت من أسود غبى ... لا يفهم الوحى حين يوحى
أبطأ فى سعيه فحاكى ... فى حالتيه غراب نوح

ويقول الأسعد ابن إبراهيم بن بليطة فى ساق أسود : [5]

---

[1] المغرب ٢ / ٢٠٧ .

[2] الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٥٨ والمرقاس أو المركاس نوع من النقانق يدق اللحم ويعرك فى قصعه بشىء من الزيت ثم يضاف إليه ثلاثة أرباع من الشحم ويحش به المصران ويقلى ثم تصنع له مرقة من خل وزيت . انظر كتاب الطبيخ ص ٢١ نقلا عن هامش الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٥٨ .

[3] ديوان ابن خفاجة ص ١١١ .

[4] خريدة القصر ٢ / ١٦٣ .

[5] الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٩٦ .

يـــا رب زنجـــى لهـــوت بــــه ... الشـــمس عـــند ســـناه ممقوتـــه
محـــدودب قـــد غـــاب كاهلــه ... فـــى منكبـــيه فـــلا تـــرى ليـــته
قـــد حكـــم التجعـــيد لمـــته ... فتراكمـــت فكأنهـــا توتـــه
وإذا ســـعى بالكـــأس تحســـبه ... جعـــلا يدحـــرج فـــص ياقوتـــه
وكأنـــه والكـــأس فـــى يـــده ... نجـــم رمـــى فـــى الجـــو عفريـــته

ووجه الشعراء سهامهم إلى المغنين والمغنيات ، وأكثروا من هجاء زرياب ، فانقطع لهجائه مؤمن بن سعيد ويحيى بن الحكم الغزال . الذى هجاه هجاء مقذعاً أغضب عبد الرحمن الأوسط فأمر بنفيه عن الأندلس ثم عاد وعفا عنه بعد توسط أكابر دولته ، وأغلب الظن أن هجاء الشعراء لزرياب يرجع إلى أسباب شخصية تتمثل فى حقدهم على المكانة التى حظى بها لدى الحكام ، ومما قاله فيه مؤمن بن سعيد : [1]

شكوت إلـيها الشـوق لمـا تحملـوا ... شكاية محـزون مـن الـبين جـازع
وقالـت وكـف الـبين تمرى دموعهـا ... ونـار الهـوى تهـتاج بـين الأضـالع
ستصـبر أو تـبكى مـن الشـوق مثلما ... بكى الخز من إبطى على بن نافع[2]

وقال مؤمن أيضاً فى هجاء زرياب : [3]

تـــبارك مـــن أذل الخـــز حـــتى ... تمعـــك فـــيه أفـــواه الكـــلاب
ومـــن جعـــل الغـــوالى ســـائلات ... عـــلى أصـــداغ أســـود كالغـــراب

وقـد أفـرد الكتانى فى كتابه باباً فى هجو المغنيات . فمن ذلك قول أحد الشعراء : [4]

وقيـــــنة تدعـــــى بتفـــــتير ... مفـــرغة فـــى قالـــب الـــزور
تـــبدو بوجـــه مـــا رآه امـــرؤ ... إلا تمـــنى الـــنفخ فـــى الصـــور

---

(1) التشبيهات ص ٢٦٥ .
...ى بن نافع هو زرياب المغنى .
...تشبيهات ص ٢٧١ .
...ـه ص ٢٤٦ .

كأنهــا والعــود فـــى حجــرها حاســـبة تنـــبى بمجــــدور
لكعـــاء مـــن أحســن حالاتهـــا صـــفع قفاهـــا بالمســـاوير
وصـــيدها الأعـــراد فـــى خلـــوة ينســيك مـــن صـــيد الســنانير
تـــباً لهــا مـــن قيـــنة عقـــلها أخـــف مـــن ريـــش العصـــافير

ويمزج إسماعيل بن بدر بين هجائه لبخيل وهجاء مغنية فيقول :[1]

تـنفس لمـا لاحـظ القــوم خـبره وقطـــب لمـــا لامســـته الأصـــابع
فقلنـــا له إنا شبـــاع فجـــد لنـــا بعـــود فمـا فـى القـوم غـيرك جـائع
فأسمعـــنا درداء صـــلعاء رجعـــت بصـــوت لهـــا تســتك مــنه المســامع
فـــوالله مـــا أدرى كــلاب تهارشـــت بحلقومهـــا أم نقنقــت بــى ضـــفادع

هجاء المدن :

وهــو اتجــاه قديم يرجع ظهوره إلى القرن الثانى الهجرى حيث وجد شعر فــى هجاء بغداد والبصرة وغيرهما ، وهو مقابل لاتجاه آخر فى مدح المدن[2] ، وكان ظهور هذا الاتجاه فى الهجاء الأندلسى امتداداً لوجوده فى الشعر المشرقى كمـا كــان ظهــوره " مرتــبطاً بواقــع الشعراء وحياتهم الاجتماعية ، فقد فرضت علـيهم ظروف العيش أن ينتقلوا من مدينة إلى أخرى ، وكان يحدث أحياناً أن يمــر الشــاعر بظــروف قاسـية فــى مديــنة مــن المــدن ، فيصــوب إلــيها ســهام هجائه".[3]

وقــد أكــثر الشــعراء مــن هجــاء المــدن الأندلســية ، فلديــنا شعر فى هجاء إشــبيلية ومرســية وشــاطبة والمــرية ورنــدة وشــريش وغيرها ، فمن ذلك قول ابن القاسم البطليوسى فى هجاء إشبيلية .[4]

يـــا حمـــص لازلـــت داراً لكـــل بـــؤس وســـاحه

---

(1) نفسه ص ٢٤٥ .
(2) الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٠ وما بعدها .
(3) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢٢٩ .
(4) اختصار القدح المعلى ص ١٥٧ .

مـــا فـــيك موضـــع راحـــة   إلا ومـــا فـــيه راحـــه

واتجه بعض الشعراء إلى هجاء مدنهم كما في قول أبي عبد الله بن ياسين الشاطبي يهجو مدينته : [1]

شـــاطبة قـــرية ضـــنينة   ليســت لمـــن أمهـــا معيـــنة
تهتضـــم الطيـــب اهتضـــاماً   وتـــأنف الدهـــر أن تعيـــنه
والخبـــث المحصـــن تصـــطفيه   ضـــداً لمـــا جـــاء فـــي المديـــنة[2]

ويلجأ بعض الشعراء في هجاء مدنهم إلى طريقة التلاعب اللفظي بأسمائها أو تصحيف هذه الأسماء لإلصاق صفة مستقبحة بها كقول ابن رفاعة في هجاء شريش : [3]

شـــريش مـــا أنـــت إلا   تصـــحيف شـــر يـــبين
فـــارحل فديـــتك عـــنها   إن كنـــت ممـــن تديـــن
فقـــلما ســـاد فـــيها   حـــر ولا مـــن يعـــين

وقد يركز الشعراء في هجائهم للمدن على صفة مذمومة ألصقت بإحدى المدن واشتهرت بها كقذارة سكانها أو عدم نظافة أحيائها أو انتشار الأمراض والأوبئة فيها ، فمن ذلك قول السميسر يهجو مدينة (المرية) معرضاً بصفة عرفت بها وهي أن مرافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها من بر العدوة ، فيقول : [4]

بـــئس دار المـــرية الـــيوم دارا   لـــيس فـــيها لســـاكن مـــا يحـــب
بلـــدة لا تمـــار إلا بـــريح   ربمـــا قـــد تهـــب أو لا تهـــب

ويصفها وصفاً مزرياً معرضاً بقذارتها فيقول : [5]

---

[1] زاد المسافر ص ١٣٧ .

[2] اشارة إلى الحديث القائل : " المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبثه " .

[3] المغرب ١ / ٣٠٦ .

[4] نفح الطيب ٣ / ٣٩٠ .

[5] نفسه ٣ / ٣٩٠ .

قـــالوا المــــرية فــــيها نطافــــة قلــــت : إيــــه
كأنهــــا طســــت تــــبر ويبصــــق الــــدم فــــيه

وقد يهجو الشاعر مدينة من المدن لوحشة انتابته فيها كقول أبى الفتح بن فاخر يهجو مدينة (رندة) :[1]

قــــبحاً لــــرندة مثــــلما قبحــــت مطالعــــة الذنــــوب
بلــــد علــــيه وحشــــة مــــا إن يفارقــــه القطــــوب
مــــا حــــلها أحــــد فيــــ ـــــوى بعــــد بــــين أن يــــؤوب
لم آتهــــا عــــند الضــــحى إلا وخــــيل لى الغــــروب
أفــــق أغــــم وســــاحة تمــــلا القلــــوب مــــن الكــــروب

وقد ينصب هجاء الشاعر على أهل مدينة معينة ، كأن يصفهم بالجبن أو النذالة أو فساد الأخلاق أو سوء الطباع وما إلى ذلك من صفات مستهجنة كقول المخزومى الأعمى يهجو أهل مرسية :[2]

عــــلى أهــــل مرســــية لعــــنة تعــــم الديــــار وأربابهــــا
فمــــا غلقــــت قــــط مــــد فتحــــت عــــلى فاضــــل الطــــبع أبوابهــــا
كــــلاب تهــــر إلى شــــاعر وتكشــــف للشــــر أنــــيابها

ويحتفظ بن بسام بقصيدة لأبى عامر بن الأصيل تعد أطول ما بأيدينا من القصائد التى قيلت فى هجاء المدن . وفيها لا يركز الشاعر هجاءه على مدينة بعينها ، كما رأينا عند أضرابه من الشعراء ، بل يهجو كثيراً من المدن مثل باجه وشلب وشنتمرية وغيرها من مدن الثغور والسواحل التى طاف بها سعياً وراء رزقه ولكنه لم يظفر منها بطائل ، ويعبر عن تجربته المريرة التى صادفها فى تلك المدن ، ويذم حظه العاثر الذى قاده إليها . ويلحق الصفات المعيبة

---

[1] المغرب ١ / ٣٣٤ .
[2] زاد المسافر ص ١١٨ .

بأهلها ، فيصفهم بأنهم أوغاد . رعاع ، ويرميهم بالخزى والعار ، ويتهمهم بالجبن ، والبخل . فيقول : [1]

إلى أيــن الفــرار ولا فــرار	ومــن لى بالقــرار ولا قــرار
أرى الأوغــاد يعــتمرون دورا	ومــالى فــى بــلاد الله دار
أجــول فــلا أرى إلا رعاعــاً	كــبارهم إذا اختــبروا صــغار
أباحــة لا وقــاك الله شــراً	فــأهلك أهــل مفسـدة شــرار
أشــلب لا جــزاك الله خــيراً	فــلا خــير لديــك ولا خــيار
أشـنتمر يــة قبحــت داراً	كــؤوس المخــزيات بهــا تــدار
أشــلطيش ألا غــرق وشــيك	تمــوج عــلى لــراك بــه الــبحار
أأونــبة تعدتــك الغــوادى	ولا هطلــت بســاحتك القطــار
بــلاد عريــت مــن كــل خــير	فملــبس أهــلها مقــت وعــار
غلطــت فــزرتها فرأيــت قومــاً	مــنازلهم وإن عمــرت قفــار
تــرد عــلى أشــعارى ويجفــى	رســولى ، والنــباهة لى شــعار
شــتوت بهــا عــلى كــره فنطــى	عــلى جــدى ومعرفــتى الغــبار

ولم يكتف الشعراء الأندلسيون بهجاء مدنهم بل اتجهوا بهجائهم إلى مدن أخرى غير أندلسية ، فنجد أبا الحسن ابن الإمام الغرناطى كاتب الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين ينظم شعراً فى هجاء مراكش حاضرة الأندلس خلال حكم المرابطين والموحدين ، فيعرض بجوها الكدر ، ومياها الآسنة ، كما يعرض بخيانة بعض سكانها . [2]

---

[1] الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٦١ .
[2] نفح الطيب ٤ / ص ١٢ .

الفصل الخامس

هجاء التندر والسخرية

- التندر بالمؤدبين والقضاة والنجلاء
- هجاء الذات
- العيوب الخلقية
- الرسالة الهزلية لابن زيدون

نقصد بهجاء السخرية والتندر هذا الضرب من الهجاء الذى لا يصدر فيه الشاعر غالباً عن حقد أو سخط ، وإنما يعمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره فى صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف ، وهو لون من ألوان التسلية وإزجاء الفراغ ، وإثبات القدرة على التصوير والإضحاك ، وهو بهذا المعنى نتاج الترف الحضارى .

ويعتمد هذا الهجاء على الطرفة أو النكتة أو الصورة المضحكة ، وقد شاع هذا الضرب من الهجاء فى الأندلس ، حتى لقد رأى الأستاذ غرسيه غومس أن الهجاء الأندلسى أصبح آخر الأمر مجرد تصوير فكه لاذع . [1]

وقد أعان على ذيوعه أسباب متعددة ، يرجع بعضها إلى البيئة الأندلسية المتحضرة بما شاع فيها من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف ، كما يرجع بعضها الآخر إلى طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل وكلفوا بالمزاح ، وقد أشار إلى ذلك المقرى فقال : [2] " ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة فى محاوراتهم وأجوبة بديهية مسكتة ، والظرف فيهم والأدب كالغريزة " [3] ، كما أشار إلى هذه الظاهرة الشقندى فى رسالته حين تحدث عن وادى إشبيلية فوصفهم بقوله : [4] " وأهله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح ، بأقبح ما يكون من السب ، فقد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدناً ، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوناً ثقيلاً " .

وتحفل مصادر الأدب الأندلسى بكثير من النوادر والطرف التى تدل على تأصل روح المزح والدعابة عند الأندلسيين ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يتصفون بهذه الصفة ، وحظيت فترة الخلافة بطائفة من الشعراء العابثين على شاكلة القلفاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر ، وكان القلفاط

---

[1] الشعر الاندلسى ص ٦١ .
[2] نفح الطيب ٢ / ٦١ .
[3] نفسه ٢ / ٦١ .
[4] نفسه ٣ / ٢١٢ .

ذا ولع بالمؤدبين يعبث بهم . وكان الغزال . ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثير ما يكون ضحاياهما من القضاة أنفسهم " [1]

وكان القاضي (يخامر) ضحية عبث هذه الطائفة من الشعراء الذين تندروا كثيراً بتصرفاته وسخروا مما عرف عنه من بله وغفلة ، فمن ذلك ما أشيع من أنه كان بين سحياته سحاءة مكتوب فيها : " (يونس بن متى والمسيح ابن مريم) وخرجت السحاءة إلى يخامر ، فأمر أن يدعى بهما ، فهتف الهاتف (يونس بن متى والمسيح بن مريم !) فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشراط الساعة ، ثم أخذ سحاءة فكتب فيها : [2]

يخامر ما تنفك تأتي بفضحة	دعوت ابن متى والمسيح ابن مريما
بما قلت حيناً ثم ناداك صائح	فإنهما بقى على الأرض فاعلما
قفاك قفا خربا ووجهك مظلم	وعقلك ما يسوى من البعر درهما
فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً	ولا مت مفقوداً ولا مت مسلما

ويذكر الخشني أن " القاضي يخامر حين ولى القضاء عامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابة جاوزت المقدار ، فلم تحتمل له العامة ذلك ، فسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة " [3] ، وكان يحيى بن الحكم الغزال أكثر الشعراء تندراً بهذا القاضي وذماً له . ومن شعره فيه قوله : [4]

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة	وسبحان من ولى القضاء يخامرا

وتهكم عليه في قصيدة أخرى فقال : [5]

لقد سمعت عجبياً	من آبدات يخامر
قرا عليه غلام	طه وسورة غافر

---

[1] تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ١١٨ .

[2] قضاة قرطبة ص ٥٤ - ٥٥ ، المقتبس (تحقيق د. مكي ص ٢٠١) .

[3] قضاة قرطبة ص ٥٤ .

[4] نفسه ص ٥٤

[5] المقتبس (تحقيق د. مكي) ص ٢٠١ .

فقـــال : مـــن قـــال هـــذا ؟ هـــذا لعمــــرى شـــاعر
أردت صـــــفع قفــــاه فخفـــت صـــولة جائــر
أتيـــت يومـــاً بتـــيس مســـتعبداً متجاســـر
فقلـــت قومـــوا اذبحـــوه فقـــال : إنـــي يخامـــر !

ويذكر الخشنى أيضاً أن مؤمن بن سعيد القيسى كان " كثير التندر والتهكم حاد الجواب ، لاذع التعليقات ، يتتبع زلات الناس ، ويكثر من الهجاء ، وينبز خصومه بالألقاب التى تدور على الألسنة بسرعة .. وكان له مجلس يقرىء فيه شعر أبى تمام ويدرس الأحداث بجامعة قرطبة ، وعلى مقربة منه مجلس القاضى ، وكان مؤمن عارفاً بما يجرى من أمور فى مجالس القضاة ، فكان كثير العبث بهم ، وأكثر من مداعبة القاضى قبعة عمرو بن عبيد الله والتعريض به وإضحاك الناس بذلك " [1] .

ويحتفظ الزبيدى فى طبقاته ببعض نوادر القلفاط مع المؤدبين والأعيان والشعراء ، فيذكر أنه أكثر من هجاء أحد الأشخاص ، وضاق الرجل بتعريضه، فأخذ سكيناً وذهب إليه فى داره ، وعندما رآه القلفاط وأحس بالشر فى عينيه عمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ، ودخل فى الصلاة ، وأطال فيها ، فأمسك عنه الرجل ، وقال : يا فاسق ، والله لولا أنك عذت بمعاذ للقيت الله بدمك ، فإنك زنديق حلال الدم . [2]

ويروى أن القلفاط بات ليلة عند أحد أصدقائه حتى تبلج الصبح وكادت الشمس تطلع عليهما ، فانتبه القلفاط ، فقال مخاطباً صديقه : [3]

يـا ديـك مـالك لم تصـرخ لتنبهـنا لقـد أسـأت بـنا ديـك الدجاجـات
يـا آكـلا للقـذى ، يـا سـالحاً عبـثاً عـلى الحصـير بهـيمى البهـيمات

---

[1] قضاة قرطبة ص ١٠٤ ١٠٥ .
[2] طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
[3] طبقات الزبيدى ص ٣٠٠ .

فأجابه صديقه

لقد صرخت مراراً جمة عدداً قبل الصباح وبعد الصبح تارات
لكن علمتك نوماً وذا كسل قليل ذكر لجبار السموات

وساعدت حلقات المؤدبين ومجالس الأنس والسمر على انتشار هذا اللون من الهجاء الذى يقوم على التفكه والدعابة ، فمن ذلك ما ذكره المقرى من أن أبا عامر التيارى أنشد يوماً فى حلقته أبيات ابن الرومى التى نظمها فى خباز وهى :

إن أنس لا أنس خبزاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه الحجر

فقال بعض تلامذته : أما أنه لا يقدر على الزيادة على هذا ، فقال :

فكاد يضرط إعجاباً برؤيتها ومن رأى مثل ما أبصرت منه خرى

فضحك من حضر وقال : البيت لائق بالقطعة . لو لا ما فيه من ذكر الرجيع ، فقال : [1]

إن كان بيتى هذا ليس يعجبكم فعجلوا محوه أو فالعقوه طرى

ويذكر صاحب (زاد المسافر) أن المخزومى الأعمى دخل مرسية فهجا بها القاضى أبا محمد عاشراً بقطعة منها :

تأملت تسعة رهط الفساد فألفيت عاشرهم عاشرا

فضاق به ذرعه ، فقال فيه أحد طلبة مرسية :

إن مخزوميكم رجل ألف الأعواد من صغره
لو أننى كحلت أسفله لانجلى عنه عمى بصره

---

(1) نفح الطيب ٢ / ١١١ .

فكـان الصـبيان يقولـون له : أتحـتاج كحـلاً يا أستاذ ؟ فكان ذلك سبب انتقاله من مرسية .[1]

وقـد راج هجـاء التـندر والدعابـة فـى أوسـاط الشـعراء والأدباء ، فالعتبى يداعب الرصافى ويسخر من بغلته التى لا تقدر على السير فيقول :[2]

هالكـــة يركـــبها هـــالك ... يعجـــب رائـــيه ورائـــيها
تضـــعف إن تشـــحج إلا كمـــا ... بـــين مضـــنى الـــنفس شـــاكيها
يمشـــى بهـــا الجهـــد رويـــداً كمـــا ... يهـــدى عـــروس الحـــى مهديهـــا

ويتندر سعيد بن العاص بثوب أحد أصدقائه فيقول :[3]

وثوبـــه فـــى ســـالف الـــزمان ... خلعـــة فـــرعون عـــلى هامـــان
أفـــنى اللـــيالى وهـــو غـــير فـــان ... حـــتى غـــدا كـــالإفك فـــى العـــيان

فهو عليه وهو كالعريان

ووجـد الشـعراء فـى الـبخلاء والطفيليين مادة خصبة للتندر مثل قول ابن نصر القرطبى[4] :

يـــا أيهـــا الخـــارج مـــن بيـــته ... وهاربـــاً مـــن شـــدة الخـــوف
ضيفـــــك قـــد جـــاء بـــزاد لـه ... فـــارجع تكـــن ضـــيفاً عـــلى الضـــيف

ويتندر ابن رضوان المالقى بأحد البخلاء فيقول :[5]

وبخـــيل لمـــا دعـــوه لســـكنى ... مـــنزل بالجـــنان ضـــن بذلـــك
قـــال لى مخـــزن بـــدارى فـــيه ... كـــل مـــالى فلســـت للـــدار تـــارك
قلـــت وفقـــت للصـــواب فحـــاذر ... قـــول خـــب مرغـــب فـــى انـــتقالك
لا تعـــرج عـــلى الجـــنان بســـكنى ... ولـــتكن ســـاكناً بمخـــزن مـــالك

---

(1) زاد المسافر ص ١١٩ .
(2) التشبيهات ص ٢٦٢ .
(3) التشبيهات ص ٣٥٢ .
(4) جذوة المقتبس ص ٣٥٦ .
(5) نفح الطيب ٦ / ١١١ .

ورسم الشعراء صورا كثيرة لمظاهر البخل عند بعض الناس ، وتندروا كثيرا بموائدهم وأطعمتهم على نحو يذكرنا بأحاديث الجاحظ في كتاب البخلاء ، فمن ذلك هذه الصورة الساخرة لأحمد بن محمد بن فرج : [1]

فعل اللئيم وليته لم يفعل ... وأتى بفعل مثله لم يجمل
ذبح الضفادع في الصنيع ولم يدع ... للنمل جارحة ولا للقمل
وضع الطعام فلو علته ذبابة ... وقعت لتكمل شبعة لم تكمل
وكأنما خرطت صحاف طعامه ... - من دقة ودمامة - من خردل
وكأن فترة صحفة عن صحفة ... في البعد والإبطاء فترة مرسل

ويتندر ابن وهيب بمائدة صنعها أحد البخلاء فيقول : [2]

ومائدة جسمها لطفه ... يدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت دائرة ... ونحن عليها نرى دائرة

ويركب ابن عبد ربه هذه الطريقة في السخرية والتندر فيقول : [3]

طعام من لست له ذاكراً ... دق كما دق بأن يذكرا
لا يفطر الصائم من أكله ... لكنه صوم لمن أفطرا

وسخر الشعراء من الطفيليين الذين يقحمون أنفسهم في الحفلات وموائد الطعام ، فمن ذلك قول ابن فرج في طفيلي يدعى بابن الإمام وفي أشياعه : [4]

أفديك من متوجد غضبان ... حتى يلوح له ضباب دخان
يقتاده شم القتار بأنفه ... مثل اقتياد النجم للحيران
وعلا الدخان بشنت بولة مربياً ... ينبيه أين مطابخ الإخوان
فترى الإماميين حول ركابه ... كالخيل صائمة ليوم رهان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أصبح جمعهم بعمان

---

[1] المقتبس (تحقيق د. مكي) ص ١٧٥ - ١٧٦ .
[2] التشبيهات ص ٢٣٣ .
[3] نفسه ص ٢٤٤
[4] نفسه ص ٢٤٤ ٢٤٥ .

رار الفـتى القرشـى لا لـتعهد | مـنه ولا شـوق إلى لقـيان
حـتى إذا وضـع الخـوان تساقطوا | بهمـاً علـيه تسـاقط الذبـان
ورأيـته مـن بيـنهم مـتخمطاً | فـى لقمـة كـتخمط السـكران
لم ينصـرف إلا وفـى أكمامـه | حمـل وفـى أعفاجـه حمـلان
وأحـو ثقـيف فـر مـنه قاصـداً | جـيان لـو أبـت قـرى جـيان
لـو حـل فـى نجران لم يـبعد علـى | عـزمات نيـته مـدى نجـران
كالموت تسعى فى التخلص جاهداً | مـنه وتلقـاه بكـل مكـان

وتـندر الشـعراء بالألقـاب المضحكة أو الشاذة كقول ابن رضوان المالقى فى رجل يلقب بالبعير : [1]

وذى لقـب عنـت له عند صحبه | مـآرب لم يسـعد علـيهن مسـعد
دعـوه بعـيراً فاستشـاط فقـال مـه | أبـا أحمـد ، وارتـد عـنهم يهدهـد
فقلـت له عد نحوهم لتعود من | مـرامك بـالمطلوب توفـى وتحمـد
فقـال وقـد غـص الفضـاء بصـوته | وقـد هـدرت مـنه الشقاشـق تـزيد
لـئن عـدت نـادونى بعـيراً كمثـلها | فقلـت له لا تخش فالعود[2] أحمد

ووجـد الشـعراء فـى بعـض المؤذنـين والقـراء مجـالاً للدعابـة ، فتصيدوا أخطاءهم ، وتندروا بأصحاب الأصوات الغليظة منهم ، فمن ذلك قول سعيد بن حكم فى مؤذن سيىء النغمة : [3]

للأبـدىّ آذان | لـلخمس فـيه هـوان
مـن أجلـه تـتلاقى | آذانـنا والبـنان

ويذكـر ابـن سـعيد أن أحـد القراء غلط ليلة فى بعض قراءته فى التراويح فقال مكـان (والزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما إلى نهاية الآية) فانكحوهما ، فقال أحد الشعراء . [4]

---

[1] نفح الطيب ٦ / ١١ .
[2] يورى بكلمة (العود) وتعنى (البعير) أيضاً .
[3] اختصار القدح ص ٣٠ .
[4] المغرب ١ / ٣٣١ .

أبدع القارئ معنى	لم يكن في الثقلين
أمر الناس جميعاً	بنكاح الزانيين

ويذكر المقرى أن ثلاثة شعراء صلوا خلف إمام مسجد قرية خارج مرسية فأخطأ في قراءته وسها في صلاته، فلما خرج أحدهما كتب على حائط المسجد: [1]

يا خجلتي لصلاة	صليتها خلف خلف[2]

وكتب الثاني تحته:

أغض منها حياء	من المهيمن طرفي

وكتب الثالث تحته:

فليس تقبل منا	لو أنها ألف ألف

ويندرج تحت هذا الضرب من الهجاء الأشعار التى نظمها الشعراء فى هجاء أنفسهم، وقد اشتهر بهذا اللون ابن حزمون الذى وصف بأنه كان صاعقة من صواعق الهجاء، عاصر ابن عنين، فكان هذا فى المشرق وهذا بالمغرب[3]، كما وصف بأنه " أحد بواقع الدهر، بذىء اللسان، مقذع الأهاجى " [4]، وقال عنه صاحب المعجب [5]: " إن له فى الهجاء يداً لا تطاول، غير أنه يفحش فى كثير منه، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة، فقال فى هجاء نفسه:

تأملت في المرآة وجهي فخلته	كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو
إذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي	فإن بها ما قد أردت من الهجو

---

(1) نفح الطيب ٤ / ١٨.

(2) الخلف: المتخلف الذى لا خير فيه.

(3) المغرب ٢ / ٢١٤.

(4) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٢٤٠.

(5) المعجب ص ٣٧٣.

كــأن عــلى الأزرار مــنى عــورة تـنادى الـورى غضوا ولا تنظروا نحوى
فلو كنت ممن تنبت الأرض لم أكن من الـرانق الـباهى ولا الطيب الحلو
وأقـبح مــن مــرآى بطــى فإنــه يقرقــر مــثل الــرعد فــى مهمــه دوّ

ولـلمخزومى الأعمـى مقطعـة يهجـو فـيها نفسه ويلف الهجاء بالغزل لفاً حسناً فيقول : [١]

رب حســناء كالغــزالة جــيداً والـتفاتاً تــزرى بحــور الخلــود
كلمتــنى فطــار قلــبى إلــيها وتزجيــت للظمــاء ورودى
فتجافـت عـن مـنظرى ثـم قالـت أتــرى الحــور واصـلات القــرود
لم ألمهــا عــلى الصـدود لأنــى كنــت أهـلا مــن مثـلها للصـدود

وسبق الأعمى وابن حزمون شعراء آخرون إلى هذا اللون من الهجاء ، على شاكلة مؤمن بن سعيد الذى يقول [٢]

فها أنا قد جئت أحمل لحية إليك لها خطب وشأن من الشان
كــأنى تـيس قـد تطـاول عمـره وأفـنى فنوناً مـن تـيوس وجديـان
ولى صاحب تحت السراويل فاسق يقـود بعثنونى إلى كـل خسـران

واتخـذ بعـض الشـعراء مما يلبسون مادة للدعابة ، فتندروا بقدم ملابسهم وإخلاقها ، ولهم فى ذلك صور طريفة مثل أبيات ابن قلزم التى يقول فيها : [٣]

وملبســى جــبة صــوف عفــت تشــق فــيها الــرياح أو تفــتق
قــد رفيــت دهــراً وقــد رقعــت والــتف فــيها الــزمن المخلــق
واختلفــت ألــوان أخــياطها بالــرفق والتلفــيق إذ تافــق
ســود وبــيض مــثل شــيب بــدا فــى شـعرات ضـمها المفـرق

ويصف ابن هذيل طيلسانه فيقول [٤]

---

[١] المغرب ١ / ٢٣١

[٢] التشبيهات ص ٢٥١ .

[٣] نفسه ص ٢٥١ .

[٤] نفسه ص ٢٥٢

طيلساني طالر من نفس ... هو فوقي غبش في غلس
والذي ألفه ألفه ... من هواء فارغ أو نفس

العيوب الخلقية

وجد الشعراء في العيوب الخلقية عند بعض الناس مادة خصبة للتندر والدعابة ، فالتقطوا هذه العيوب مثل ضخامة الجسم أو احدودابه أو تضخم الأنف أو طوله أو تجدر الوجه ، وأبرزوها في صور كاريكاتورية ساخرة على نحو ما كان يفعل ابن الرومي ، فمن ذلك هذه الصورة التي يرسمها عبد الله بن كليت لأنف الزهري : (١)

أنفك يا زهري في قبحه ... كأنه في صورة السبوق
يقعد في البيت لحاجاته ... وأنفه يمضي إلى السوق

ويستغل المخزومي الأعمى صفة (الحول) عند أحد الأشخاص ويفتن في التعريض بها فيقول : (٢)

خلا نجل إبراهيم ليلا بعرسه ... فجامعها في ساعة الدبران
فجاءت به مأفون أشوه خلقة ... كريم عجان لا كريم بنان
وتزورُّ إحدى مقلتيه لأختها ... كأنهما عنزان تنتطحان

ويلتقط ابن صارة صفة اتساع فم أحد الأشخاص وقبح ثناياه فيسخر منه سخرية لاذعة لا تخلو من إقذاع فيقول : (٣)

أما الثنايا فإني لست منثنياً ... عن الثناء عليها آخر الأبد
يبدو لطرفك منهاجين تبصرها ... سن كمثل سن الصيقل الفرد
كأن جن سليمان بنوا فمه ... بنيان تدمر بالصفاح والعمد
له فم كحر في شكل صورته ... " ترمي غواربه العبرين بالزبد "

---

(١) التشبيهات ص ٢٤٨ .
(٢) خريدة القصر ٢ / ٢٥٦ .
(٣) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

ويشبه المخزومي الأعمى شخصاً أحدب بالقوس ويسخر منه سخرية مرة فيقول : [1]

وأحـــــــدب ليـــس له همة	ولا لـــذة فـــي ســـوى فيشـــة
يقـــول أنـــا القـــوس فـــي شـــكله	فـــلا تـــنكروا الهـــم فـــي بدرتـــي
فصــــولكم أبـــــدأ زائـــــد	أفقحـــتكم تلـــك أم فقحـــتي

ولأبي إسحاق بن خفيف صورة طريفة التقط مادتها من أحد المشاهد التي رآها حيث قبض على أحدب – وهو مع صبي في خلوة – فضربا ، وطيف بهما ، والأحدب على عنق الصبي . فقال في ذلك : [2]

رأيـــت الـــيوم محمـــولا	وأعجـــب مـــنه مـــن حملـــه
جمـــال الـــناس تحمـــلهم	وهـــذا حـــامل جملـــه

وتندر الشعراء بضخامة الجسم ، فمن ذلك ما حكاه البياسي من أن شخصاً ضخم الجثة مستثقلاً دخل عليه في مجلس أنس فقال البياسي : [3]

أســـقني الكـــأس ضـــاحيه	ودع الشـــيخ ناحـــيه

فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إن تكـــن ساقيـــاً له	لـــيس تـــرويه ســـاقيه

ونظم الشعراء مقطعات كثيرة في هجاء اللحى ، وتندروا بها وبحامليها ، ورسموا لها صوراً طريفة مثل قول عبيديس الكاتب : [4]

يـــا مـــن علـــيه للعـــلا تـــاج	إنـــي إلى اللحـــية محـــتاج
وعـــندكم فـــي وشـــقة لحـــية	بحمـــلها المـــانق حجـــاج
للـــثغر فـــي جانـــبها مســـرح	فـــيه مـــن الأنعـــام أزواج

---

(1) المغرب ١ / ٢٢٩ .
(2) نفح الطيب ٤ / ١٨ .
(3) نفسه ٣ / ٣٩٠ .
(4) التشبيهات ص ٢٤٩ .

ومن صنوف الطير في بعضها   بط وسمان ودراج
يسيل من شاربه فوقها   ملح غزير القطر ثجاج
للبق في عثنونه مكمن   ومن دبيب القمل أفواج
إذا مشى تبصر أفواجها   كأنها في البحر أمواج
يعقدها في شعر وجعانه   فهو إذا ما شاء صناج

وقد شارك الزجل في التندر بأصحاب اللحى ، بل لعله كان أقرب من الشعر في التعبير عن هذه الناحية ، لأنه يخاطب جمهور العامة ، وكذلك فهو أدعى إلى الذيوع والرواج ، وأعلق بالأفواه والأذهان ، ولابن قزمان زجل يسخر فيه من أحد أصحاب اللحى ، وفيه يقول : [1]

من نتف وشقرف   أفزع أنت عنو
وآش تعمل بواحد   مالو خير في ذقنو ؟
قد اصبح نعثر   في شي بردو يغلى
مذلل محير   ودقنو تقول لي
خليه أنت واصبر   وافرح لو بمثلى
هو يقلع وأنا اطلع   ومني ومنو
كم ليلة ضممتوا   كالغزال الأحور
وشعروا لوا سطوا   والخديد أحمر
واليوم صار في دقنوا   كنو تيس مصور
وهو التيس بعينو   وآش حاجه تكنو ؟

وقد راج هذا الهجاء الذى يقوم على الدعابة والإضحاك في أوساط الأمراء والحكام ، بل إن بعضهم كان يشارك فيه على نحو ما يذكره الحميدى من أن الوزير سليمان بن واتسوس — أحد رؤساء البربر — كان أثيراً عن الأمير عبد الله ابن محمد ، فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللحية ، فلما رآه جعل الأمير ينشد :

معلوقة كأنها جوالق
نكداء لا بارك فيها الخالق

---

(1) نقود الأزل ورقة ٩٠ .

للقمـــل فـــى حافاتهـــا فقـــانق
فـــيها لـــباغى المـــتكى مـــرافق
وفـــى احـــتدام الصـــيف ظـــل رائـــق
إن الـــــذى يحمـــــلها طـــــائق

وتقـول الـرواية إن الوزيـر الـبربرى لم يتسع صدره لهذه الدعابة فرد على الأمـير بقولـه : " إنمـا كـان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم، وأما إذا صارت جالبة للذل،فلنا دور تسعفنا وتغنينا عنكم،ثم وضع يده فى الأرض وقام من غير أن يسلم،ونهض إلى منزله فغضب الأمير وأمر بعزله" [1]

ويذكـر المقـرى أن عـبد الـرحمن الناصـر جلـس ذات يـوم فى جماعة من خواصـه ومعهم أبو القاسم بن لب ، وكان يعده للمجون والتطايب ، فطلب منه أن يهجـو عـبد الملـك بـن جهـور -- أحد وزرائه -- فقال : أخافه ، فقال لعبد الملـك وزيره : فاهجه أنت ، فقال : أخاف على عرضى منه ، فقال الناصر : أهجوه أنا وأنت ، ثم قال :

لـــب أبـــو القاســـم ذو لحـــية ... طويلـــة أزرى بهـــا الطـــول

فقال عبد الملك :

وعرضـــها كـــيلان إن كســـرت ... والعقـــل مـــأفون ومخـــبول

فقال الناصر للب : اهجه فقد هجاك ، فقال بديها :

قـــال أمـــين الله فـــى عصـــرنا ... لى لحـــية أزرى بهـــا الطـــول
وابـــن جهـــير قـــال قـــول الـــذى ... مأكولـــــه القرضـــيل [2] والفـــول
لـــولا حـــيائى مـــن إمـــام الهـــدى ... نخـــست بالمـــنخس شـــو ...... [3]

---

[1] بغية الملتمس ص ٣٠١ .
[2] القرضيل : شوك له ورق عريض تأكله البقر .
[3] كلمة (شو) اسم لذكر الرجل بالرومية وكلمة (لولو) اسم للاست بها . فكأنه قال : لولا حيائى من إمام الهدى نخست بالمنخس الذى هو الذكر استه . نفح الطيب ٣ / ٦١٨ .

ثم سكت فقال له الناصر : هات تمام البيت . فامتنع ، فقال له (قولو) يعني تمام البيت . وهي كلمة قالها الناصر مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو وإبدال الهاء الأخيرة واواً ، إذ صوابها (قله) على حكم المشي مع الطبع والراحة من التكلف ، فقال لب : يا مولانا ، أنت هجوته . ففطن الناصر والحاضرون إلى ذلك . [1]

ويحتفظ ابن بسام بأرجوزة مزدوجة خاطب بها الوزير (ابن بقية) على لسان جارية كان أهداها إليه . وضاقت بها الحال عنده ، فقالت تسخر منه وترميه ببعض الصفات المعيبة كالقبح والبخل والفجور : [2]

إنــي بــالله وبالوزيــر ... أدفـع مـا حـل مـن المحـذور
وهبتـنـي لأوحـد مـنـقطع ... فـي القبح والفقر خفـي الموضع
ولم يـبـن لي بهـذا العيـب ... مـن فقـره حـتى دهـي بالشيب
جعلتـنـي أسيرة مملوكـة ... لطلعـة حالكـة صـعلوكه
يعـزى عـلى الفـال إلى مسعود ... وهـو شـقي لـيس بـالمحمود
كمـا يكـنـى بـأبي البيضـاء ... أسـود كالسـروة فـي الظـلماء
وكنـت أرجـو معـه للـراحه ... إذا لم يفـز بطـائل الملاحـه
إذا بـه أدخلـني فـي شـغل ... لفـرط الإلمـام بسـوق الغـزل
وقـال لي إن كنـت تهوين التحف ... والاكـل والشـرب وحلـة الطـرف
فانتـبهي وحكمـي الأصـابع ... واطـرحي عـن نفسـك المطـامع
قـد كسـدت آدابـه والشـعر ... فمـا له عند البرايا قـدر
ألحـن فـي أشعاره مـن تـيس ... أعجـز فـي البيـت مـن الضـريس
ولـو تـراه سـائراً للسـوق ... إذا بـدا فـي كسـوة الغرنوق
مشمراً فـي الطـين عـن سـاقيه ... مـداولا عصـاه فـي كفـيه
يـأخذ فـي التعبير والإزهـاد ... منكمشـاً فـي طلعـة الصـياد
فمـرة يعطـي وألفـاً يمـنع ... ومـرة يمشـي وعشـراً يقـع
ولـو تـرى يـاذا الـندى مـثواه ... لقلـت سـبحان الـذي أبـلاه

---

(1) نفح الطيب ٣ / ٦٦١٧ - ٦١٨ .

(2) الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

وعلى هذا النحو تمضى الجارية فى السخرية من صاحبها ، والإزراء به على نحو يذكرنا بطريقة ابن حجاج البغدادى فى الهزل والإحماض .

وينافس النثر الشعر فى هذا الضرب من الهجاء ، وبرع بعض الكتاب فى التندر والدعابة على شاكلة الأديب أبى عبد الرحمن بن طاهر الذى قال عنه ابن بسام : " وله عدة نوادر أحر من الجمر ، وأدفع من الصخر " [1] ، ويحتفظ له برسالة يتهكم فيها بصاحب له حضر محاصرة شاطبة وأظهر من الجبن والخوف ما جعل ابن طاهر يقول فيه [2] : " ورأيت مآل الأمر بوقوع الحرب وشروع النقب ، وأنه وضعت الملاطيس [3] ، فقلت : الآن حمى الوطيس فأرجو أن يصحب الظفر ، ويسعد القدر ، وحدثت أنه دعيت " نزال" فكنت أول نازل، فقلت لمحدثى : أمجد أنت أم هازل ؟! سيدى أشد بأساً وأعز نفساً ، من أن يرى يوم جلاد ، إلا على ظهر جواد ، فإن لبس زغفاً ، هزم ألفاً ، وإن تقلد صمصامه ، لم يبق هامة ، ولكن أذكره بهذه الشهامة قول أبى دلامة :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة ... يكر على صفى تميم لولت

وقوله :

إذا صوت العصفور طار فؤاده ... وليث حديد الناب عند الثرائد

وعمد بعض الكتاب إلى التصوير الهزلى فى رسم شخصياتهم ، على النحو الذى نراه فى رسالة ابن عباس الكاتب التى يتندر فيها برسول أبى المغيرة بن حزم ويصوره تصويراً أقرب إلى التصوير الكاريكاتيرى فيتخيله تارة فى زى حاو أو لعاب ، ويتفقه بثيابه الواسعة الفضفاضة ، فيقول : [4] " أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة ، صعل الهامة ، بعينيه ليانه ، وعلى أسنانه طرامة ، وفى شاشتيه وضارة ، وفى منطقه لكنة صعبة ، وعلى أنفه عقدة

---

[1] الذخيرة ٣ / ١ / ٦٨

[2] نفسه ٣ / ١ / ٦٨ - ٦٩ .

[3] الملاطيس : المناقير من حديد .

[4] الذخيرة ١ / ٢ / ٦٤٥ وما بعدها .

كالكبة ، وفى أطواقه سعة يخرج منكباه من أقطارهما . كأنها ثاب واله . أو شبارق راهب تائه ، وفى مشيته تفج قبيح كأنه عائم فى يبس . وعليه غفارة شفافة شبكية السيدارة ، (١) وأظن العمالقة غزلت صوفها فى زمن الفطحل ... فوحق الطرب وحرقه الأدب لقد هممت أن أوفى الشطارة حقها ، وأسم الخلاعة وسمها ، فأجعل فى يده عكاز قصبة خضراء . وفى رأسه قلنسوة بيضاء وأضع على عاتقه ضرجاً بنخالة ، وأقيم من نفسى ومن حضر عراقة وآلة ، وآخذ به من طرق بنى مرخادى على قارعة المحجة بين الناس . وأقلده سيف الباجى أبى القاسم "

(١) السيداره : القلسوة بلا اصداغ .

الرسالة الهزلية لابن زيدون :

تعد الرسالة الهزلية لابن زيدون من أكثر الرسائل الأندلسية تعبيراً عن هذا النوع من الهجاء الساخر ، وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس غريمه ومنافسه في حبها وتمتزج فيها السخرية بالذم وقد استهلها بقولـــــه [1] : " أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قواده ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إليّ ، وتخلف بعدها عليّ " .

ويصطنع ابن زيدون طريقة الجاحظ في السخرية ، فيخلع على ابن عبدوس ما خلعه الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب في رسالة " التربيع والتدوير من صفات ليست فيه إيغالا في الإزراء به ، وامعاناً في السخرية منه، مكثراً من الأمثلة والشواهد التي تمثل ثقافة ابن زيدون في شتى ضروب المعرفة على نحو ما يبدو في قوله : " ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تغر عليك ، فإنها أعذرت في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والإسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٢٣٥ وما بعدها تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية .

لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك .. "

وعلى هذا النحو من التهكم وحشد الإشارات التاريخية والدينية والفلسفية وغيرها يمضي ابن زيدون في رسالته ، فالسموأل تعلم الوفاء من ابن عبدوس وحاتم الطائي جاد بوفره ، وسحبان أخذ عنه الفصاحة ، وأفلاطون أعطى تلميذه أرسطو فضل علمه ، وبطليموس ابتكر آلة الاصطرلاب على هدى من تفكيره وتدبيره ، ويمعن ابن زيدون في المبالغة بقصد السخرية من غريمه فهو الذى " أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية ، وفك المعمى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسم وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وتصفح الأديان ورجح بين مذهبي ماني وغيلان " وأنه لو شاء خرق العادات ، وخالف المعهودات ، فأحال البحار عذبة وفجر من الحجارة مياهاً رطبة ، ونقل الغد فصار أمساً ، وزاد العناصر فكانت خمساً " . (1)

ومثل هذه المبالغة في الوصف تستشير القارىء وتدعوه إلى مشاركة ابن زيدون سخريته واستخفافه بابن عبدوس ، وطريقة ابن زيدون هنا تقترب أيضاً من طريقة البلاغيين في الذم بما يشبه المدح ، غير أن ابن زيدون لا يسير في هجائه على وتيرة واحدة ، فهو ينتقل من الذم غير المباشر إلى الذم المباشر على نحو ما يبدو في قوله : " هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، سيء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعايب مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة وعلمك مخرقة :

---

(1) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق [1]

ويمعن ابن زيدون في الاستخفاف والاستهزاء بابن عبدوس حين يقارن بينه وبين من شهروا بالبله والسفه والغباء على مر العصور كما في قوله : " حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك ، فوجودك عدم والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر " . [2]

ويعمد ابن زيدون إلى تضخيم الصورة والإضافة إلى حواشيها واستقصاء جوانبها وتتبع جزئياتها ودقائقها لتبدو أكثر سخرية وإضحاكاً كقوله : " وعطرت أردانك ، وجررت هميانك ، واختلت في مشيتك ، وحذفت فضول لحيتك ، وأصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ، واستأنفت عقد إزارك .. " [3]

والتشابه واضح بين رسالة ابن زيدون وبين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي كتبها إلى أديب " كان يكثر من نقده وذمه وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق إن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً فنعته بأنه مربع مدور ، واستمر يضفي عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال في كل ميدان من ميادين الثقافة " . [4]

وقد وصلت رسالة الجاحظ إلى الأندلس في وقت مبكر ، فقد أورد ياقوت على لسان أبي محمد النجيري من قوله : " كنت بالأندلس فقيل لي : إن هاهنا تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن زيد ، ويكنى أبا خلف ،

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

[2] نفسه ص ٢٤٢ .

[3] ديوان ابن زيدون ص ٢٤٥ .

[4] ابن زيدون ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ص ٤٤ .

فأتيته وسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان . ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال : كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان . فوقع إلينا كتاب " التربيع والتدوير " له .... " [1]

وأعجب ابن زيدون برسالة الجاحظ ، فحذا حذوه ، واصطنع طريقته في السخرية والتهكم ، وقلده في تضمين الشواهد والاقتباس من القرآن والحديث والشعراء والأمثال والتاريخ والفلسفة والعلم ، وأسرف في هذه الناحية حتى غدت الرسالة معرضاً لإظهار ثقافته ، واستحالت إلى ما يشبه المتن مما حدا بابن نباتة إلى شرحها وفك معمياتها في كتاب سماه (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) .

---

[1] معجم الأدباء ١١٦/٤ وما بعدها .

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء

يعكس شعر الهجاء تلك الخصومات والمعارك الهجائية التى نشبت بين شعراء الأندلس ، وكان الجانب الأكبر من هذا الشعر نتاجاً للمنافسة الأدبية بين الشعراء ، إذ كان كل شاعر يسعى إلى إثبات تفوقه وجدارته حتى يضمن الرواج لبضاعته في سوق الأدب ، وفى قصور الملوك والأمراء ، وكان كثير من الشعراء يتكسبون بالشعر ويعتبرونه بضاعتهم الوحيدة التى تهيىء لهم أسباب العيش والرزق ، وطبيعى أن تشتد المنافسة بين أصحاب المهنة الواحدة حتى تصل إلى درجة العداء والخصومة فى بعض الأحيان .

وترجع هذه الخصومات الشعرية بين شعراء الأندلس إلى عهود مبكرة ، ففى (المغرب) رواية تتحدث عن خصومة وقعت بين الشاعر أبى المخش عاصم ابن زيدون وبين شاعر يدعى (ابن هبيرة) ، وكان أبو المخش مشهوراً بقول الشعر إلا أنه كان جسوراً على الأعراض ، فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن ، وتعرض أبو المخش فى محنته لهجاء الشعراء ، فكانوا يطعنون فى نسبه ، ويتهمونه بالنصرانية ، كما كانوا يعرضون بحادثة قطع لسانه ، وإلى ذلك يشير ابن هبيرة بقوله : [1]

أقلفتك التى قطعت بشوش ... دعتك إلى هجائى وانتضالى

وردعليه أبو المخش بقصيدة التزم فيها بالبحر والروى ، لم يبق منها إلا قوله : [2]

سألت وعند أمك من ختانى ... بيان كان يغنى عن سؤالى

ويحدثنا (ابن بسام) عن خصومة أخرى نشبت بين أبى حاتم الحجارى وبين شاعر يدعى (ابن أحمد) ، ويحتفظ ببعض قصائد الهجاء التى تبودلت

---

(1) المغرب ٢ / ١٢٣ ، بدائع البداته ص ٢١ .

(2) المغرب ٢ / ١٢٣ .

بينها ، وتقوم معانى الهجاء على ادعاء كل منهما السبق على الآخر فى إجادة الشعر . كما يعرض (ابن أحمد) بلقب الحجارى ، كقوله : [1]

قالوا الحجارى وظنى أنه حجر ... والدر ليس بمنحوت من الحجر
عنى إليك من اشعار لها غرر ... شيرى يباحث بالتحجيل والغرر
بيت ببيت ومصراع بمشبهه ... حتى يصدق خبرى ذائع الخبر

وقد رد عليه الحجارى بقصيدة قال فيها : [2]

قف يا ابن أحمد لا تجمع على غرر ... كوقفة العير بين الورد والصدر
ولا تعرض فعندى كل شاردة ... كالنار تلقى إلى الأشرار بالشرر
إن شئت سلماً فسلماً أو محاربة ... عندى أناة وعندى بطشة القدر

واستمر التراشق بين الشاعرين ، ونظم (ابن أحمد) قصيدة أخرى يشيد فيها بشاعريته ، وينتقص من قدر أبى حاتم وفيها يقول : [3]

أمرت منى جفاء غير مؤتمر ... كالذئب نهنه عدو الضغيم الهصر
والعير مستوقف الأفراس سابقة ... كوقفة العير بين الورد والصدر
إن كنت مستأخراً يوماً فلا عجب ... فوالد الكتب قد أثبتن فى الطرر
وبين فكرى ونفسى كل صائبة ... كالسهم ينفذ بين القوس والوتر

ويعارضه أبو حاتم بقصيدة مماثلة يفخر فيها بشعره ويعرض بمنافسه فيقول : [4]

أنا الحجارى والياقوت من حجر ... والماء ينبع سلسالا من الحجر
وركن مكة فيه ما سمعت به ... تراك تجحد أو تعمى عن النظر
لا تحسب الشعر إلا دوح باسقة ... أصبحت أقطف منها يانع الثمر
لى المحاسن وانظر قلما خفيت ... إلا على جاهل بالشمس والقمر
أخفى عليك ولكن سوف تعرف بى ... ليثاً تكنف ملتفاً من الشجر

---

(1) الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٧٥٤ وما بعدها .
(2) نفسه ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .
(3) نفسه ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .
(4) الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٧٧٠ .

مــاذا تــريد بنســج هلهلــته يــد   أخشى عليك هجوم القرّ فى صفر

ولا نجد فيما أورده ابن بسام من تهاجى الشاعرين أكثر من هذا التفاخر أو هذه المباهاة بشاعرية كل منهما ، مما أفقد شعرهما كثيراً من توهج الهجاء وحيويته .

وشهد عصر الطوائف معارك هجائية حامية بين الشعراء وذلك لوجود كثرة من شعراء الهجاء البارزين فى هذا العصر كالسميسر والأبيض وابن صارة وغيرهم بالإضافة إلى اهتمام ملوك الطوائف بالشعراء وإغداقهم الأموال والصلات عليهم ، مما أدى إلى وجود تنافس قوى بين هؤلاء الشعراء للاستئثار بحظوة الملوك ، وكان المعتمد بن عبّاد أكثر ملوك الطوائف تقريباً للشعراء وإيثاراً لهم ، فتنافسوا فيما بينهم للظفر بإعجابه ، وأخذ هذا التنافس صوراً عديدة كأن يلجأ أحد الشعراء إلى الفخر بشعره أمام المعتمد أو أن يعرض بأضرابه الشعراء فيزرى بمكانتهم ويسعى إلى الانتقاص من شأنهم كما فعل يوسف بن عبد الصمد حين أنشد قصيدة أمام المعتمد عرض فيها بمنافسيه من الشعراء أمثال ابن اللبانة والقزاز والحجام وافتخر بشاعريته فقال : [1]

والشــعر بهجــته إذا نطقــت بــه   بــين المحــافل ألســن الأعــيان
مــا كــان قــول الشــعر إلا خطــة   كانــت مراتــبها عــلى كــيوان
حــتى تدنــس ثوبهــا بــزعانف   نشــأت عــلى الأوضــار والأدران
مــن صــنعة القــزاز والجــزار أو   مــن صــنعة الحجــام واللــبان

واحتدمت معارك عنيفة بين شعراء الهجاء البارزين ، وكانت هذه المعارك أشبه بميدان يحاول كل شاعر فيه أن يبرز أقوى ما لديه من أسلحة الهجاء . فلم يترك أحدهم صفة معيبة إلا وألصقها بصاحبه ،فمن ذلك هذه المعركة التى نشبت بين الأبيض وبين ابن صارة الشنتريني ، وكلاهما هجاء خبيث الهجاء

---

[1] الذخيرة ٣ / ٢ / ص ٨١٤ .

وقد أدى إلى تشابك الشاعرين سخرية ابن صارة من أحد أبيات الأبيض . وذلك حين نظم غزلية كان مما قاله فيها : [1]

كونــي عــلى حــذر فــإن عداتــنا ... يترقـــبونك بالمكـــان الـــبلقع
فــإذا لقيـــت ســـراتهم فتقـــنعي ... حــذراً عــلى خلــق الهمــام الأروع
لفـــي بـــنانك بالـــرداء وســـلمي ... تكفـــي الكـــريم إشـــارة بالإصـــبع

وكـان ابـن صـارة إذا لقى الأبيض لف إصبعه في كمه وسلم عليه تعريضاً بهـذا البيـت حـتى أحـرجه ، فكانـت تلـك هى الشرارة التى أشعلت الحرب بينهما، فقال ابن صارة يهجو الأبيض : [2]

ومـن العجائـب أن يكـون الأبـيض ... بحمـاره وسـط السـوايق يـركضُ
أنى له تقريبــــــها أو خبـــــها ... مـــا العـــير إلا أن يحـــث فيـــنهض
العـــير عـــير مذلـــة إن لم يهـــن ... أو لا فمـــا إن فـــيه عـــرق ينـــبض

ورد عليه الأبيض بقصيدة موجعة أفحش فيها وأزرى بشاعريته فقال :

جـن ابـن صـارة والحـوادث تعـرض ... والكلـب فـي مهـوى العصـا يـتعرض
أغـــروه أن قـــالوا شـــويعر قطعـــة ... لا شـــاعر فحـــل يمـــر ويـــنقض
ولقـد نـزوت عـلى القوافـي نـزوة ... كـادت لهـا أبكارهـا تـتمحض
والله لـــولا أن يقـــال تجـــاهلا ... إنـــي صـــبوت وإن رأســـي أبـــيض
لجعلـــت غـــرمول الحمـــار بكفـــه ... حـــتى يـــرى هـــل فـــيه عـــرق ينـــبض

وتذكـرنا هاتـان القصـيدتان — إلى حـد ما — بأسلوب جرير والفرزدق فى النقائض مـن حيـث محاولـة كل منهما الإزراء بصاحبه والانتقاص منه ، ومن حيـث النسـج والصـياغة كمـا أنـنا نحـس بـأن الأبيض حاول أن يركب طريقة الفرزدق فى الهجاء وإن كان ثمة فرق كبير بينهما .

راد المسافر ص ١٠٨ .
ـد ١ / ٢ / ص ٩٠١

وكان السميسر أحد بواقع عصره في الهجاء ، فلم يسلم أحد من هجائه ويحتفظ له ابن بسام بقطعة في هجاء معاصره أبي عبد الله بن الحداد قال فيها :

قالوا ابن حدّاد فتى شاعر	قلت وما شعر ابن حدّاد
أشعاره مثل فراخ الزنا	فتش تجد أخبث أولاد

وكان الشعراء يخافون السميسر ويخشون سلاطة لسانه ، حتى لنجد شعراً في هجائه مجهول النسبة والهوية كقول أحدهم : [1]

إن كنت تهوى مليحاً	فلا تقل بمعذر
واهو الصغار ففيهم	على الحقيقة تعذر
دع الكبار لقوم	دانوا بدين السميسر

ومن الطريف أن نجد شواعر الأندلس ينزلقن إلى معارك الهجاء ، ويخضن فيما خاض فيه الشعراء ، فقد هجت مهجة القرطبية ولادة ، رغم ما عرف عنهما من صلة وطيدة ، إذ علقت بها ولادة ، وتأدبت عليها ، ولكن وقع بينهما ما اقتضى تغير مهجة على ولادة فهجتها هجاء موجعاً قالت فيه : [2]

ولادة قد صرت ولادة	من غير بعل ، فضح الكاتم
حكت لنا مريم لكنه	نخلة هذى ذكر قائم

وينسب إلى ولادة شعر في هجاء ابن زيدون رغم أنه شغف بها حباً ، وخلع فيها عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وفي هجائها تخلع على ابن زيدون أقبح الصفات ، كاللواط والزنا والسرقة على نحو ما يبدو في قولها : [3]

ولقبت المسدس وهو نعت	تفارقك الحياة ولا تفارق

---

(1) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٤ .

(2) نفح الطيب ٤ / ٢٩٣ .

(3) نفسه ٤ / ٢٠٥ .

فلوطـــــــــى ومــــــأبون وزان ودیـــــوث وقـــرنان وســـــارق

وتهجوه مرة أخرى هجاء مقذعاً فتقول :[1]

إن ابـــن زيـــدون عـــلى فضـــله يعشـــــق قضـــبان الســــراويل
لـــو أبصـــر الأيـــر عـــلى نخلـــة صـــــار مـــــن الطـــير الأبابـــيل

كما ينسب لولادة بيتان آخران في هجاء شخص يدعى (الأصبحي) وهما لا يختلفان عما سبقهما من نزوع إلى الفحش كما في قولها :[2]

يـا أصبحي اهـنأ فكـم مـن نعمـة جاءتك من ذى العرش رب المنن
قـد نلـت باسـت ابـنك مـا لم يـنل بفـــرج بــوران أبوهـــا الحســـن

وشهد عصر المرابطين معركة حامية بين المخزومي الأعمى وبين نزهون الغرناطية ، وكان الأعمى من أبرز شعراء الهجاء الذين عرفتهم الأندلس ، وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض سريع الجواب ، ذكي الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره "[3] ، وأما نزهون فكانت من أشهر شواعر غرناطة في عصر المرابطين ، وقد بدأت المهاترات الهجائية بينهما عندما اعترضت على معنى بيت أنشده الأعمى في أحد المجالس ووجهت إليه كلاماً عنيفاً نحو قولها : " إن من يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيوس وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم "[4] فأثارت كلماتها الأعمى فهجاها بقوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة وإن كان قد أمسى من الضوء عا[illegible]
قواصـــد نـــزهون تـــوارك غيرهـــا ومـن قصـد البحر استقل الـ[illegible]

(1) زاد المسافر ص ١٠٩ .
(2) نفسه ٤ / ٢٠٦ .
(3) الإحاطة ١ / ٤٣٢ .
(4) نفسه ١ / ٤٣٤ . نفح الطيب ١ / ١٩٢ .

وردت عليه نزهون بقصيدة رمته فيها بأقبح الصفات ، وملأتها بالبذاءة والفحش قالت فيها : [1]

قل للوضيع مقالا … يتلى إلى حين يحشر
من المدور أنشئت … والخرا منه أعطر
حيث البداوة أمست … في أهلها تتبختر
لذاك أمسيت صبا … بكل شيء مدور
خلقت أعمى ولكن … تهيم في كل أعور
جازيت شعراً بشعر … فقل لعمري من اشعر
إن كنت في الخلق أنثى … فإن شعري مذكر

ورد عليها الأعمى بقوله : [2]

ألا قل لنزهون ما لها … تجر من التيه أذيالها
ولو أبصرت فيشة شمرت … - كما عودتني - سر بالها

ولم تنته هذه المعركة الهجائية بين الشاعرين إلا بتدخل والى غرناطة فى ذلك الوقت أبو بكر بن سعيد . [3]

وكانت نزهون طرفاً فى معركة هجائية أخرى مع ابن قزمان الذى هجاها هو الآخر هجاء مقذعاً ذكره المقرى . [4]

والواقع أن الأعمى ونزهون وابن قزمان كانوا زعماء طبقة من أدباء الأندلس عرفوا بالمجون والتهتك ، والقدرة على الإضحاك والتفنن فيه ، وكانوا لا يتورعون عن الإغارة على الأعراض أو الخوض فى أفحش الأمور فخافهم الناس ، واتقاهم الحكام . واختصوا بكثير من الهدايا والطرف اتقاء لألسنتهم . وتحتفظ كتب الأدب ببعض الروايات التى تكشف عن مجونهم وتهتكهم .

---

[1] نفسه ١ / ٤٣٤ .
[2] نفح الطيب ١ / ١٩٣ . المغرب ١ / ٢٢٨ .
[3] نفسه ١ / ١٩٣ .
[4] نفسه ٤ / ٢٩٧ .

ولم يخل (عصر الموحدين) من وجود معارك هجائية بين الشعراء . فقد قامت خصومات بين ابن الأبار وبعض الشعراء [1] ، كما نجد هجاء لابن سهل فيمن رآهم يتطفلون على الشعر [2] ، ولعل أوضح هذه الخصومات ما كان بين ابن مرج الكحل وبين أبى حريزة محفوظ بن مرعى الشريف . إذ يحتفظ صاحب (زاد المسافر) بمقطعات تبودلت بين الشاعرين . وفيها يلصق الشريف صفة الشؤم بشعر ابن مرج الكحل كما يبدو فى قوله : [3]

مالى أرى شعر مرج كحل   أشأم من ناقة البسوس
فإنما شعره مغير   شن مغاراً على النفوس

ويردد هذه المعانى فى مقطعة أخرى فيقول : [4]

تبت يدا مرج الكحول فإنه   أفنى الأنام بشعره المشؤوم
قد أهلك الإسلام شؤم مديحه   هلا أشار بمدحه للروم

ويدور هجاء ابن مرج الكحل للشريف حول اتهامه بالزندقة والقول بالتعطيل والتحريف . كقوله : [5]

أيا عجباً ما للشريف يذمنى   ويبغضنى حتى كأنى مسجد
ولا عيب عندى غير أنى مسلم   وأن اسمى اسم الهاشمى محمد

ويقول : [6]

وغد يرى الصلوات نافلة له   ويقول بالتعطيل والتحريف

كما يتهمه ابن مرج الكحل بوضاعة النسب وانحطاط الأصل : [7]

---

(1) ابن الابار - حياته وكتبه - ص ١٦٣ .

(2) ديوان ابن سهل ص ٦٥ .

(3) زاد المسافر ص ١٢٤ .

(4) نفسه ص ١٢٤ .

(5) نفسه ص ١٢٥ .

(6) نفسه ص ١٢٦ .

(7) نفسه ص ١٢٥ .

أيـــا ناقصـــاً يدعـــى أنــــه ... كــريم الجــدود شــريف الســلف
ألاجـــىء لـــنا بـــأب واحـــد ... وضـــيع ونحـــن نحـــط الشـــرف

وفـي العصـر الغـرناطي ، نشـبت خصـومة عنيفة بين ابن الخطيب وبين تلميذه ابن زمرك ، ولكن أصداءها لم تنعكس بصورة واضحة في شعرهما ، وقد أورد (المقرى) قصيدة لابن زمرك قالها بعد وفاة ابن الخطيب وخلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب في دولته ، وفيها تعريض بأحد الوزراء [1] . وهناك تلميحات وإشارات أخرى تتناثر في بعض قصائده التى توجه بها إلى محمد الخامس ، وهذا ما جعل (بلاشير) يرى أن ابن زمرك نال من ابن الخطيب بعد وفاته هاجياً ، وأغلب الظن أن هذه الإشارات ربما كان المقصود بها الوزير ابن الكاس الذى قامت بينه وبين ابن زمرك عداوة عنيفة . [2]

وكـان للتنافس التقليدى بين شعراء الأندلس والمغرب أثر في احتدام المعارك الهجائية بينهم ، إذ كان أنصار كل فريق يدعون لأنفسهم البروز والسبق على الآخرين ، فمن أمثلة هذه الخصومات ما كان بين أبى عبد الله محمد بن معمر وبين ابن شرف ، وفيه يقول ابن معمر : [3]

قولـوا لشـاعر بـرجة هـل جـاء مـن ... أرض العـراق فحـاز طـبع الـبحترى
وافـــى بأشـــعار تصـــيح بكفـــة ... وتقـول هـل أعـزى لمـن لم يشـعر
يـــا جعفـــراً رد القـــريض لأهلـــه ... واتـــرك مـــباراة لـــتلك الأبحـــر
لا تزعمـــن ما لم تكـــن أهلا له ... هـذا الرضـاب لغـير فـيك الأبخـر

كمـا دارت معركة هجائية أخرى بين ابن الياسمين وبين عدد من الشعراء المغاربة كأبى العباس الجراوى وأبى الحجاج النمرى الفاسى . واشتهر قول الجراوى فيه : [4]

---

[1] نفح الطيب ٥ / ١٧٧ وما بعدها .
[2] مع شعراء الأندلس والمتنبى ص ٣١٧ .
[3] المغرب ١ / ٤٣٣ .
[4] العصون اليانعة ص ٤٦ .

است الحبارى ورأس النسر بينهما ... لون الغراب وأنفاس من الجعل
خذها إليك بحكم الوزن أربعة ... كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

ورد عليه ابن الياسمين بقوله طاعناً فى نسبه : (١)

يا أعرق الناس فى نسل اليهود ومن ... تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة ... تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

وقد ركز الشعراء فى معاركهم الهجائية على استغلال نقاط الضعف فى منافسيهم لاسيما إذا كانت عيوباً خلقية : كما فى قول أبى زيد ابن أبى العافية فى هجاء ابن العطار القرطبى يعرض بطوله وحوله : (٢)

وكيف يفيق ذو صبر قصير ... حليف وساوس حول طوال

وقد راجعه ابن العطار بقصيدة عرض فيها بداء الجرب الذى كان قد أصيب به فقال : (٣)

كأنك لم تجرب قط خلقاً ... ولم تعرف بتجربة الليالى
أنسّيت التجارب إذ تجارى ... بهن الجِرْبِيَاءُ مع الشمال
فلا تغفل عن التجريب يوماً ... ولوا عطيت فيه جراب مال
وجرب جاربيتك واختبره ... وجر برجله إن كان قالى
وجار بنيك لا تستحى منه ... ومن نجّار بابك لا تبالى
وأجر بالك الجرباء تبصر ... نجوم الأفق تجرى بانتقال
وجرب أهل جربة تلف قوماً ... أبوا لبس الجوارب والنعال
تجاراً باعة تجروا بزيت ... تسمّوا بالتجار بغير مال
إذا سمعوا بتمر فى جريب ... جروا ببطاء ذى التمر البوالى
إذا جربت هذا الخلق أبدى ... لك التجريب أجربة خوالى
جرى بالنحح دهراً جر بؤساً ... عليك وجار بالنوب الثقال

---

(١) نفح الطيب ٤ / ص ١٧
(٢) نفسه ٤ / ص ١٧ ، ١٨ .
(٣) نفسه ٤ : ١٨ .

وهـى قصيدة جيدة ، لعل أحسن ما فيها أسلوب التعريض والتلميح الذى استغله الشاعر فى مهارة ، فهو لم يشأ أن يصرح تصريحاً مباشراً بداء الجرب الذى أصاب مهجوه ، ولم يسف أو يقذع فى استغلال هذه الصفة ، وإنما عرض بها تعريضاً مقبولاً بدا فى إكثاره من استخدام مادة (جرب) فى ألفاظه كقوله (تجـرب – تجـربة – الـتجارب – الجربـياء .... إلخ) حـتى لا يكاد يخلو بيت من وجود لفظة أو أكثر تتردد فيها هذه المادة .

ونـرى (المنفـتل) شاعر إلـبيرة فـى عصـر الطوائف يستغل صفة ضعف البصر عند أحد الشعراء فيقول فى هجائه : [1]

إن كنـــت أخفـــش عـــين فـــإن قلـــبك أعمـــى
فكـــيف تنـــثر نـــثراً أم كـــيف تـــنظم نظمـــاً

وكمـا استغل الشعراء العيوب الخلقية فى أضرابهم ، استغلوا أيضاً ما فى ألقـابهم مـن صفات تدعو للهزء والسخرية ، وتفننوا فى تصيد أوجه الشبه بين هـذه الألقـاب وبـين ما تدل عليه فى الأصل وعقدوا صلات طريفة بين الطرفين فمن ذلك قول بعضهم فى شاعر كان يلقب بالبعيرة : [2]

قـالوا الـبعيرة يهجونـا فقلـت لهـم مـاذا دهيـت بـه حـتى مـن الـبقر
هـذا ولـيس بـثور بـل هـو ابنـته وأيـن منزلة الأنـثى من مـن الذكـر

وكـان أعـداء ابـن الأبـاء يلقبونه بـ " الفار " . ووقعت مهاجاة بينه وبين أبى الحسن على بن شلبون البلنسى . فقال يعرض بلقبه : [3]

لا تعجـــبوا لمضـــرة نالـــت جمـــيـ ـــع الـــناس صـــادرة عـــن الأبـــار
أو لـــيس فـــأراً خلقـــة وخلـــيقة والفـــار مجـــبول عـــلى الإضـــرار

---

(1) المغرب ٢ / ١٨٢ .
(2) نفح الطيب ٤ / ١٤٤ .
(3) نفسه ٢ / ٥٩٣

ويتلاعب (المنفتل) تلاعباً ظريفا بلقب ابن ميمون الفراء فيقول : [1]

لابـــن مـــيمون قـــريض　　زمهريـــر الـــبرد فـــيه
فـــإذا مـــا قـــال شـــعراً　　نفقـــت ســـوق أبـــيه

وكانت المهن التي يمتهنها بعض الشعراء مجالاً للمهاجاة بينهم ، كاتهام ابن الصائغ لابن زهر الحفيد — وكان طبيباً — بقتل مرضاه كقوله : [2]

يـــا ملـــك المـــوت وابـــن زهـــر　　جاوزتمـــا الحـــد والـــنهاية
تـــرفقا بـــالورى قلـــيلا　　فـــي واحـــد مـــنكما الكفايـــة

واستغل ابن زهر في ابن الصائغ اشتغاله بالفلسفة فرماه بالزندقة وتوعده بما ينتظره من مصير مؤلم فقال : [3]

لابـــد للـــزنديق أن يصـــلبا　　شـــاء الـــذى يعصـــونه أو أبـــى
قـــد وطـــأ الجـــذع له نفسه　　وصـــوب الـــرمح إلـــيه الشـــبا

---

(1) الذخيرة ١ / ٢ ص ٧٦٠ .
(2) زاد المسافر ص ١١١ .
(3) نفسه ص ١١٢ .

الباب الثالث

الجوانب الفنية

سيدور حديثنا عن الجوانب الفنية في شعر الهجاء حول نقطتين أساسيتين هما : لغة الهجاء ، وصوره الفنية . وإن كان هناك ظاهرتان جديرتان بالتسجيل لأنهما تدخلان في نطاق الجوانب الفنية . أما الملاحظة الأولى فهي :

الميل إلى المقطعات :

الغالب على شعر الهجاء الأندلسي هو ميل الشعراء إلى نظم أهاجيهم في مقطعات قصيرة لا تتجاوز الأبيات القلائل ، وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح عند كثير من الشعراء على شاكلة السميسر ، ويشبهه في هذه الناحية ابن صارة الشنتريني ، وقد تنبه ابن بسام إلى هذه الظاهرة في شعره فقال إنه —ابن صارة— " أولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا لاسيما قوارع كدرها على مردة عصره ، وسم بها أنوف أحسابهم ، وتركها مثلا في أعقابهم " [1] . وأشار إلى ذلك مرة أخرى فقال : " ورأيت له عدة مقطوعات في الهجاء تربي على حصى الدهناء " . [2]

وانتحاء المقطوعة أو اتخاذها قالباً للهجاء مذهب ارتضاه بعض الشعراء القدماء لأن ذلك أدعى إلى ذيوع الهجاء وحفظه وعلوقه بالأذهان ، والنأي به عن الإطالة والاستثقال ، وحين قيل للفرزدق : ما اختيارك للقصار ؟ قال لأني رأيتها أثبت في الصدور ، وفي المحافل أحول وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها في الآذان أولج ، وفي أفواه الناس أعلق . [3]

وهذا الضرب من الهجاء القصير الذي نجد مثيلاً له في الأدب اليوناني واللاتيني فيما يسمى *Epigram* ،قد انتشر أيضاً بصورة واضحة في القرن الثاني وما بعده " لأن طبيعة الحياة دعت إلى عدم الإطالة في القصائد عموماً ،

---

[1] الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٣٤ .

[2] نفسه ٢ / ٢ / ص ٨٣٥ .

[3] الأغاني ٢ / ٣٣ .

فـي حـين أن الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورة ليبلغ الشاعر بأبياته القليلة التى يركـز فـيها معـانى محـددة مـا يـرجوه من سرعة إيلام لمهجو ، وما يتمناه من سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس " [1]

فاتجـاه أغلـب شـعراء الأندلس إلى نظم الهجاء فى مقطوعات قصيرة إنما كـان امـتداداً أو اسـتمراراً لهـذا الاتجـاه الذى اختاره بعض الشعراء القدماء من أمثال الحطيئة وجرير والفرزدق .

التأثر بمذاهب المشارقة فى الهجاء :

وهذه الظاهرة ترتبط بسابقتها ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان نظم أكثر الأهاجى الأندلسية فى مقطعات امتداداً لتيار قديم ، فإن كثيراً من شعراء الأندلس تأثروا بمذاهب المشارقة فى الهجاء ، فركب بعضهم طريقة الحطيئة فى هجاء الذات ، وكلـف أكـثرهم بطريقة ابن الرومى فى التصوير الهزلى أو الكاريكاتيرى ، وتأثر آخرون بطريقة ابن حجاج وابن سكرة فى السخف والإحماض ، وترددت أصداء جرير والفرزدق فى الهجاء الأندلسى وإن كانت بصوت خافت ، ولم يقتصر هذا الـتأثير عـلى الشـعر وحـده ، بـل إنـه وجد طريقه إلى النثر أيضاً ، وظهر ذلك بشـكل واضـح فـى الرسالة الهزلية التى انتحى فيها ابن زيدون طريقة الجاحظ فى السخرية .

---

[1] الشعر فى القرن الثانى ص ٣٠١ .

الفصل الأول

لغة الهجاء

- الميل إلى السهولة والبساطة
- النزوع إلى الشعبية
- التأثر بالثقافات الشائعة
- استلهام التراث
- الاحتفاء باللغة

لغة الهجاء :

تتباين لغة الشعر من موضوع إلى آخر . فلغة الغزل بما فيها من رقة وعذوبة وسلاسة تختلف عن لغة المدح بما فيها من قوة وجزالة وفخامة ، وقس على ذلك موضوعات الشعر الأخرى ، فلكل موضوع لغة تناسبه وتوائمه .

ولما كان فن الهجاء يستمد خصائصه ووجوده من عاطفة الغضب ، فمن الطبيعي أن تنعكس هذه الخاصية على لغته ، فتأتي مشحونة بالحدة والتوتر والانفعال ، وتلك صفة عامة تتميز بها لغة الهجاء في كل عصر ، غير أن هناك سمات فارقة تختلف باختلاف البيئات والعصور ، فإذا كانت لغة الهجاء الجاهلي تتصف بالعنف والقوة ، وتستمد مفرداتها وألفاظها وتراكيبها من طبيعة البيئة الجاهلية بما فيها من صراع ومعارك ، فإن لغة الهجاء الأندلسي قد اتخذت وجهة أخرى تبعاً للتطور الحضاري والزمني ، فتأثرت بأساليب الحضارة ، وثقافة العصر ، وخضعت لمقتضيات البيئة المتحضرة التي اختلفت اختلافاً بيناً عن البيئة القديمة بما فيها من بداوة وخشونة ، ومن ثم نستطيع أن نجمل خصائص لغة الهجاء الأندلسي فيما يلي :

الميل إلى السهولة والبساطة :

حرص الشعراء الأندلسيون على أن ينظموا أهاجيهم في لغة بسيطة سهلة لا توعر فيها ولا إغراب ، تمشياً مع الذوق الحضري وما يستتبعه من رقة وسلاسة ولكي يضمنوا لها الذيوع والانتشار على ألسنة الناس ، فاقتربت لغة الهجاء من لغة الحياة اليومية ، واقتربت من النثرية إلى حد بعيد ، وتضمنت العبارات والألفاظ التي تتردد على ألسنة العامة في مقام التخاصم أو التشاتم مثل عبارة (فلان أعمى القلب) التي يرددها المنفتل في قوله يهجو الأخفش الشاعر : [1]

---

(1) المعرب ٢ / ١٨٢ .

إن كنـــت أخفـــش عـــين فـــإن قلـــبك أعمـــى
فكـــيف تنـــثر نـــثراً أم كـــيف تـــنظم نظمـــا

وهـذه اللغـة السهلة ذات التراكيب النثرية والتى تشبه لغة الكلام العادى نلمسها أيضاً فى قول ابن الياسمين يهجو أبا الحجاج بن نمرى الفاسى : [1]

إنمـــا الشـــأن فقـــيه عـــالم لـــيس يعـــلم
لا تـــراه الدهـــر إلا بغـــريم النـــاس مغـــرم
وإذا صـــلى ريـــاء كـــان فـــيها مـــثل أبكـــم
ذا جوابـــى وهـــو ظـــلم لـــك والـــبادئ أظـــلم

ويستخدم ابن الخطيب تعبيراً مألوفاً يجرى على ألسنة الدهماء ، ولايزال يـتردد فـى أيامـنا هـذه ، فيقال (فلان يأكل باليسار وباليمين) دلالة على ما يتصـف بـه مـن شره وطمع ونهم ، فيقول ابن الخطيب فى هجاء رجل يحتال على الولاية : [2]

حلفـــت لهـــم بـــأنك ذو يســـار وذو ثقـــة وبـــرّ فـــى الـــيمين
ليســـتندوا إلـــيك بحفـــظ مـــال فـــتأكل باليســـار وبالـــيمين

النزوع إلى الشعبية :

الهجـاء فـن واقعـى يفـرخ فـى أوسـاط العامـة ويذيـع وينتشر على ألسنة الدهمـاء ومـن ثـم فقـد جنحـت لغـة الهجـاء إلى الشعبية فى أساليبها وألفاظها ومعانـيها ، وتمـثل ذلـك فى إكثار الشعراء من استخدام ألفاظ السباب المتداولة على ألسنة العامة ، وصاغوا أهاجيهم فى قوالب شعبية لتكون أدعى إلى الذيوع والرواج ، فمن ذلك هذه التعبيرات التى يرددها ابن الخطيب فى هجائه للوزير ابن أبى الفتح والتى لا تخرج عن الشتائم التى تتردد على ألسنة العامة : [3]

---

[1] الغصون اليانعة ص ٥٠ .
[2] نفح الطيب ٦ / ٤٦٩ .
[3] نفسه ٥ / ١٤١ .

يـا مفـرط الجهـل والغـباوة لا — يحسـب إلا مـن جملـة البقر
يا ناقص الدين والمروءة والعقـ — ـل ومجـرى اللسـان بـالهذر
يـا ولـد السـحق غـير عكتـتم — حديـثه يـا ابـن فاسـد الدبـر
يـا بغـل طاحونـة يـدور بهـا — مجـتهد السـير مغمـض البصـر

ومن أمثلة هذه التعبيرات الشعبية قول حبلاص الرندى : [1]

لا تفـرحن بولايـة سـوغتها — فالـثور يعلـف أشـهراً كـى يذبحـا

وقول أبى عامر ابن الأصيل : [2]

أكـرم بـه مـن قـائد مـاجد — يصـلح لـلحرث ورعـى العجـول

وتتمثل هذه النزعة إلى الشعبية أيضاً فى استخدام الأمثال الشائعة ، كما تتمثل فى الإشارة إلى بعض العادات المستمدة من البيئة وواقع الحياة اليومية ، على نحو ما يبدو فى قول الغزال : [3]

فديتك مـاذا تحسـب المرء صـانعاً — فقلـت ومـاذا يصنع الـدب بالـنحل
يـدق خلاياهـا ويـأكل شـهدها — ويـترك للذبـان مـا كـان مـن فضـل

ونلمس ذلك قول أبى عامر بن الأصيل : [4]

مـن كـل حـراث له لحية — تدهـن بالشـحم وبالزيـت

ويشير القلفاط إلى عادة الاستيقاظ على صياح الديكة فيقول : [5]

يـا ديـك مـالك لم تصـرخ فتنبهـنا — لقـد أسـأت بـنا ديـك الدجاجـات

---

[1] نفح الطيب ٤ / ١٣٢ .
[2] خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
[3] قضاة قرطبة ص ٨٦ .
[4] خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
[5] طبقات الزبيدى ص ٣٠٠ .

التأثر بالثقافات الشائعة :

وتأثرت لغة الهجاء بالثقافات الشائعة على اختلاف أنواعها ، فتسربت مصطلحات النحاة إلى لغة الهجاء ، كقول ابن الياسمين في هجاء الجراوى :[١]

يا أعرق الناس في نسل اليهود وما — تأبى شمائله التفصيل للجمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدة — تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

واستعان بعض الشعراء بصيغ التصغير للتحقير من شأن المهجو كقول إبراهيم بن خلف في هجاء أحد الكتاب : [٢]

أعرضت عنه فدلاني كويتبه — من الغرور بحبل جد مضعوف

وأكثر الشعراء من الإشارات الدينية والتلويح ببعض الآيات القرآنية كقول ابن حجاج الإشبيلى : [٣]

على معاذ قرون لويعاينها — فرعون ما قال:أوقدلى على الطين[٤]

وقول أبى عامر بن الأصيل : [٥]

يحسد فرعون على قوله — " وهذه الأنهار من تحتى "

ويقتبس الرندى أيضاً من القرآن الكريم فيقول في أحد الثقلاء : [٦]

تزلزلت الأرض زلزالها — فقلت لسكانها ما لها
فقالوا أتانا أبو خالد — فأخرجت الأرض أثقالها

---

(1) دمية القصر ١ / ١٥٥ .
(2) زاد المسافر ص ١٠٣ .
(3) نفسه .
(4) إشارة إلى ما جاء في سورة القصص آية ٣٨ (وقال فرعون ... فأوقد لى يا هامان على الطين) .
(5) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .
(6) أبو البقاء الرندى ، شاعر الرثاء في الأندلس تأليف الدكتور رضوان الداية ص ٧٨ .

ويعمد شاعر آخر إلى التلويح بما ورد في القرآن الكريم من آيات في التهديد والوعيد ، فيقول في شأن المتخاذلين عن الجهاد .[١]

فـي سـورة الحشـر آيـات مفصـلة ... فـي شأنكم أنزلت لم تعدكم عـددا
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة ... تقضـي عليكم بـأن لا تفلحوا أبـدا

وكلف الشعراء بتضمين الأحاديث الدينية كقول ابن سهل [٢] يشير إلى الحديث المشهور : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " .

أيـا مـتطفلا فـي الشـعر يـبدو ... عـلى وجـناته طفـل المسـاء
إذا الضـليل يـوم الحشـر وافـى ... فلسـت بداخـل تحـت اللـواء

ويضمن ابن ياسمين حديثاً آخر فيقول في هجائه لشاطبة : [٣]

شـاطبة قـرية ضـنينة ... ليسـت لمـن أمهـا معيـنة
تهتضـم الطيـب اهتضـاماً ... وتـأنف الدهـر أن تعيـنه
والخبـث المحـض تصـطفيه ... ضـداً لمـا جـاء فـي المديـنة[٤]

استلهام التراث :

التفت شعراء الهجاء الأندلسيين إلى تراث القدماء ينهلون منه ، وتمثل ذلك في تضمينهم أو استعارتهم بعض المعاني الذائعة الصيت فالأبيض يلوح إلى معنى جرير المشهور في هجاء الأخطل فيقول في هجائه لشخص يدعى ابن حمدين : [٥]

يـريد ابـن حمديـن أن يعـتفى ... وجـدواه أنـأى مـن الكوكـب
إذا ذكـر الجـود حـك استه ... لبشـت دعـواه فـي تغلـب[٦]

البيان المغرب ص ١١٠ .

ديوانه ص ٦٥

(٣) زاد المسافر ص ١٣٧ .

اشارة إلى الحديث القائل (المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبثه) .

المغرب ٢ / ١٢٨

يشير على قول جرير . والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

ويضمن الأعمى المخزومى بيتاً شهيراً فيقول : [1]

لابن القصير مع ابنه وصغيره حجج بها سوق الفسوق تقوم
ألقاه يوماً تحت أسود حالك فبدا يعاتبه لذا ويلوم
فأجابه متعجباً وجوابه بيت على مر الزمان قديم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ويردد ابن الأبار أحد معاني النابغة المشهورة فيقول : [2]

قل لابن شلبون مقال تنزه غيرى يجاريك الهجاء فجار
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار

ويتمثل استلهام التراث أيضاً فى تضمين الأمثال العربية القديمة كقول أبى حريز محفوظ بن مرعى الشريف فى هجاء مرج الكحل : [3]

مالى أرى شعر مرج كحل أشام من ناقة البسوس

الاحتفاء باللغة :

واحتفى بعض الشعراء بلغتهم وتأنقوا فيها مظهرين بذلك مهارتهم وتفوقهم اللغوى ، واتخذ هذا الاحتفاء صوراً عديدة كان يعمد بعض الشعراء إلى طريقة التلاعب اللفظى نحو قول ابن خفاجة الذى مر بنا من قبل : [4]

ما إن درى ذاك الدميم وقد شكا من نيل ممتدح ورمح جواد
هل يشتكي وجعاً به فى سرة بالسين أم فى صرة بالصاد

وكلف بعض الشعراء بتصحيف الألفاظ لتوليد معان جديدة كقول الحضرمى فى هجاء شريش : [5]

---

(1) زاد المسافر ص ١١٨ .
(2) نفح الطيب ٢ / ٥٩٣ .
(3) زاد المسافر ص ١٢٤ .
(4) ديونه ص ٢٣٥ .
(5) المغرب ١ / ٣٠٦ .

شــــريش مـــــا أنــــــت إلا تصـــــحيف شـــــر يـــــبين

ويتلاعب ابن الخطيب بكلمة (فتح) فيقول : [1]

يا ابن أبي الفتح نسبت عكست فـــلا بفـــتح أنــــت ولا ظفـــر

وبرع بعض الشعراء فى انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعنى مثل كلمة (فسكل) التى تعنى الفرس الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل والتى استخدمها إبراهيم بن خلف فقال : [2]

فجـاء فسـكل مـن لاقيـت متـنداً أخـا عـنان عـن الأحـرار مصـروف

وقد يعمد شاعر إلى حرف معين يديره فى أغلب ألفاظ البيت أو القصيدة مثل تكرار (القاف) فى قول الأبيض : [3]

وصـده عـن قـراع الدارعـين بهـا قـــرع القواقـــير أفـــواه الأبـــاريق

وقد وظف ابن العطار القرطبى اللغة لموضوعه توظيفاً جيداً فى القصيدة التى عرضناها من قبل ويقول فى مطلعها : [4]

أجـل يـا نافـث السـحر الحـلال أتـــانى مـــنك نظـــم كـــاللآلى

ويعرض فيها بما أصاب شاعر آخر من داء الجرب ، ويستغل مادة (جرب) المعجمية على اختلاف معانيها ودلالاتها ، ويصوغ منها ألفاظاً ومعانى كثيرة تتردد فى كل بيت بل قد تتردد فى البيت الواحد غير مرة ، ويصبح حرف الجيم هو مفتاح القصيدة والمهيمن على كل أبياتها .

واعتمد بعض الشعراء على عنصر (التورية) فى هجائهم ، كقول ابن رضوان المالقى يورى بكلمة (مالك) :

---

(1) نفح الطيب ٥ / ١٤٠ .

(2) دمية القصر ١ / ١٥٥ .

(3) زاد المسافر ص ١١٢ .

(4) نفح الطيب ٤ / ١٧ .

لا تعـرج عـلى الجـنان بسـكنى   ولـتكن سـاكناً بمخـزن مـالك

ويـورى بكلمة (العود) التى من معانيها (البعير) فى هجاء رجل يلقب بهذا اللقب فيقول :

لـئن عـدت نـادونى بعـيراً كمثـلها   فقلـت له لا تخش فالعـود أحمـد

ولابن خفاجة بعض مقطعات فى الهجاء نلمح فيها أثر الصنعة اللفظية ، كاستخدام المحسنات ، والتزام مالا يلزم مثل قوله [1]

أنـى تطاولـنى ودونـى بسـطتا   جـد يسـاعدنى وجـد يسـعد
هـاقد حللـت وللـتقلقل غايـة   فـى حيث يشرف بـى ويشرف مقعد
طلت السماك فهل سمعت بحلية   تـرقى بهـا نحـو السـماك وتصـعد
إلـزم ثـراك وغـض طـرفك ذلـة   فمكانـتى أنـأى علـيك وأبعـد
ولـئن طربـت وقـد عرتـنى وعكـة   والليـث يـورد والمهـند يـرعد
فقـد استطلت عـلى الكلام بمقـول   بـك مـن ذلاقـته المقـيم المقعـد

وتبدو هذه الصنعة أيضاً فى قوله فى هجاء أسود حسود : [2]

يـا جامعـاً بمسـاويه وطلعـته   بين السـوادين مـن ظـلم ومـن ظـلم
أمـثله حسـداً فـى مـثله جسـداً   لقـد تـألف بـين الـنار والفحـم

ومن مظاهر هذه الصنعة كلف بعض الشعراء بتجنيس القوافى لتوليد معان جديدة ولإثراء شعرهم بالموسيقى كقول أحدهم : [3]

هـم الـبرابر لا تـرجو نوالهـم   وسـل مـن الله تعجيل الـنوى لهـم

---

(1) ديوانه ص ١٤٥ .

(2) نفسه ص ٧٧

(3) أدب الفقهاء ص ١٧٢ .

الفصل الثانى

صور الهجاء الأندلسى

- التأثر بالبيئة
- الثقافات الجديدة
- التراث الدينى
- الموروث القديم

صور الهجاء الأندلسي :

شاعر الهجاء فنان ذو طبيعة خاصة ، فهو يشبه الممثل الذى يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس ، والإضحاك – ولا شك – مهمة شاقة ، وموهبة لا تتأتى لكل إنسان ، وكذلك الهجاء ، فهو فن عسير ، ليس بمقدور أى شاعر أن يطرقه إلا إذا رزق قدرة خاصة ، وعيناً لاقطة ، وخيالا نافذاً ، فالهجاء ليس وصفاً ينقل العالم الخارجى فى مهارة وإتقان ، أو مصوراً يحمل فى يده آلة تصوير تلتقط الصور بدقة وبلا إضافات ، ولكن الهجاء فنان ذو خيال خلاق مبدع تذوب المشاهد أمامه وتتلاشى وتتحطم لكى تخلق من جديد ، فهو لا ينقل الصورة كما هى ولكنه يطوعها لموهبته ، ويحتال عليها بوسائل كثيرة ، فيعمد إلى تكبيرها أو تحويرها ، أو تشخيصها ، أو قلبها ونقضها ، أو إضافة زوايا جديدة إليها ، فتصير أقرب إلى الصورة الهزلية الساخرة التى تبعث على الضحك ، ولكنها فى الوقت نفسه تثير الاشمئزاز والنفور ، ولا مجال فى هذه الصور لإعمال الفكر أو قدح الذهن أو الإسراف فى الخيال ، لأن الهجاء " يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول ما يقرؤه ، فهو كالنكتة ، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .. ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفيقاً وإصابة فى هذا الفن " . [1]

وإذا كانت الصورة من العناصر الهامة التى تقوم عليها القصيدة ، فإنها تعتبر أهم العناصر التى تقوم عليها قصيدة الهجاء ، ويمكن أن نجمل أهم خصائص صور الهجاء الأندلسى فى النقاط التالية :

التأثر بالبيئة :

استوحى الهجاءون كثيراً من صورهم من البيئة التى عاشوا فيها على اختلاف مظاهرها وتنوع مشاهدها ، فأثر البيئة المسيحية يتضح فى هذه الصورة

---

[1] الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ٣٤ .

التي يرسمها أبو إسحاق الإلبيرى لأحد الثرثارين ، وفيها يشبه لسانه بجرس أو بناقوس يرن في إحدى البيع .[1]

ولقد عجبت لمؤمن في شدقه جرس كناقوس ببيعة كافر

ويبدو أثر البيئة الحربية واضحاً في قول الغزال يهجو امرأة فيشبه صلعتها ببيضة المحارب التى تلمع بين صلال السيوف :[2]

كأنها بيضة الشارى إذا برقت بالمأزق الضنك بين المشرفيات

ويبدو هذا الأثر في قول ابن صارة في هجاء شخص قبيح الفم والثنايا فيشبه أسنانه بحد السيف :[3]

يبدو لطرفك منها حين تبصرها سن كمثل مسن الصيقل الفرد

ويستوحى المنفتل صورة البيئة الأندلسية بما فيها من صقيع وزمهرير فيقول في هجائه لابن ميمون الفراء :[4]

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فإذا بيت بيتاً نفقت سوق أبيه

واستوحى الشعراء صورهم من واقع حياتهم ومما تحفل به معيشتهم من مظاهر وعادات وتقاليد ، فابن هذيل يشبه تهدل أنف ابن قزمان بالقدوم فيقول :[5]

يقرب وجهاً منك في خلق قربة كأن انهدال الأنف منه قدوم

---

(1) ديوان الإلبيرى ص ٨٠ .
(2) يحيى بن الحكم الغزال ، تأليف صالح البنداق ص ١٨٥ .
(3) الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .
(4) نفسه ١ / ٢ / ٧٦٠ .
التشبيهات ص ٢٤٩ .

ويشبه ابن وهيب أنف أحد الأشخاص بعود المستراح كما يشبه وجهه في قبحه وشؤمه بإقبال الرزايا : [1]

ووجــــه مــــثل إقــبال الـــرزايا	وأنــــف مــــثل عــــود المســـتراح

ويستمد جعفر بن إبراهيم اللورقي إحدى صوره من عادة انتشرت بين الناس وهي جذُّ فتيل الذبال ليصبح أكثر توهجاً وإضاءة ، فيقول في أحد أصدقائه : [2]

هــو الســم الــزعاف لشــاربيه	وإن أبــدى لــك الأرى المشــورا
ويوســعني أذى فــأزيد حــلماً	كمــا جــذ الذبــال فــزاد نــورا

ويسترفد ابن خفاجة إحدى صوره من أحد الأمراض الشائعة في عصره وهو مرض (الفالج) فيقول في ذم خط واستبراد شعر : [3]

لحــى الله أبــياتاً بعثــت ذمــيمة	فلــو كــن أعضــاء لكــن مخارجــا
معوجـــة أســـطارها وحـــروفها	كــأن بهــا مــن بــرد لفظــك فالجــا

ويلتفت الغزال في هجائه لأحد البخلاء إلى عادة نزع الضرس التي يمارسها الحجام فيقول : [4]

فــلم يعطــني مــن مالــه غــير درهــم	تكلفــه بعــد انقطــاع رجــائي
كمــا اقــتلع الحجــام ضرســاً صحيحة	إذا اســتخرجت مــن شــدة بــبكاء

ويستحضر محمد بن شخيص صورة النفخ في (البوق) أو الضغط في أنبوب الكير فيقول في هجائه لقوم جبلوا على البخل : [5]

كــلما جئــتهم لأنشــد شــعري	طمعــاً مــن نوالهــم باليســير

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٩ .
(2) خريدة القصر ٢ / ١٤٥ .
(3) ديوانه ص ٣٥٣ .
(4) التشبيهات ص ٤٠ .
(5) التشبيهات ص ٢٤٢ .

فكأني وضعت فلكة بوق   في فمي أو ضغطت أنبوب كير

ويهجو أحمد بن نعيم امرأة فيشبه انتفاخ وجهها بإحدى آلات النفخ الموسيقية فيقول :[1]

كأن كلتا صفحتي وجهها   ركبتا من كوبتي نافخ

ويلتفت أبو عبد الله بن القزاز إلى صورة غطاء الرأس فيقول في هجائه لأحد الأشخاص :[2]

تبدلت شرطياً بصاحب شرطة   كريم نجار النفس ممتنع الجار
فأصبحت كالطرطور كان لسيد   فأخلق حتى صار في رأس عيار

ويستوحي شاعر آخر عادة الصيد في إحدى صوره فيقول في هجاء قينة .[3]

وصيدها الأعراد في خلوة   ينسيك من صيد السنانير

ويشبه عبيد الله المفجع أحد أصحابه الثقلاء بنهار الصيف في طوله وما يحدثه في النفوس من ضيق وخمول فيقول :[4]

لنا صديق مليح الوجه مقتبل   وليس في وده نفع ولا بركة
شبهته بنهار الصيف يوسعنا   طولا ويمنع عنا النوم والحركة

وحين يسخر العتبي من بغلة الرصافي التي تسير ببطء ومشقة يستحضر صورة العروس حين يحملها أحد أقربائها إلى زوجها ويسير بها سيراً هادئاً متريثاً .[5]

يمشي بها الجهد رويداً كما   يهدى عروس الحي مهديها

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٢ . والكوبة : الطبل الصغير . أو آلة موسيقية تنفخ بالفم .
(2) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .
(3) التشبيهات ص ٢٤٦ .
(4) جذوة المقتبس ص ٣٠٤
التشبيهات ص ٢٦٢ .

ويهجو عبد الله بن فرح طفيليا فيشبه اهتداءه إلى موضع الطعام بحاسة الشم القوية عنده ، بشخص يسير ليلا مهتدياً بنجوم السماء : [1]

يقتاده شم القتار بأنفه مثل اقتياد النجم للحيران

ويسترفد ابن فرح صورة الخيل الصائمة تأهباً ليوم الرهان فى هجائه لطائفة من الطفيليين يلقبون بالإماميين : [2]

فترى الإماميين حول خيامه كالخيل صائمة ليوم رهان

وحين يهجو أحد الشعراء أميراً ظالماً يتظاهر بالتقوى ويكثر من التسبيح يشبهه بالجزار الذى يردد اسم الله وهو يتأهب للذبح : [3]

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وعمد الهجاءون إلى استيحاء صورهم من أجواء الحيوانات فقارنوا بينها وبين مهجويهم فى الشكل والهيئة والطبع للتقليل من شأنهم والإزراء بهم ، ولإظهارهم فى شكل هزلى يدعو إلى الضحك ، وبرعوا فى هذا الجانب براعة كبيرة ، فالمخزومى الأعمى يشبه عينى شخص أحول بعنزتين تنتطحان : [4]

وتزور إحدى مقلتيه لأختها كأنهما عنزان تنتطحان

وهيئة أحد الثقلاء تذكر أبا الفرج الرشاش بصورة الفيل : [5]

ما إن جلست إلى جليس مرة إلا كأن عليه منك الفيلا

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٥ .

(2) نفسه ص ٢٤٥ .

(3) نفح الطيب ٦ / ٢٦٣ .

(4) خريدة القصر ٢ / ٢٥٦

(5) التشبيهات ص ٢٤٧

وتتردد صورة (الفحل) و (التيس) فى قصائد الهجاء على نحو ما يبدو فى قول ابن الجد فى هجاء ملوك الطوائف .[1]

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور

ويقول أبو الفرج الرشاش فى هجاء أحد الأشخاص :[2]

إنك لا تعرف الجميل ولا ... تفرق بين القبيح والحسن
إن الذى يرتجى نداك لكالحا ... لب تيساً من شهوة اللبن

ويشبه ابن الخطيب ابن أبى الفتح ببغل يدير الطاحونة وهو مغمض العينين :[3]

يا بغل طاحونة يدور بها ... مجتهد السير مغمض البصر

ويهجو إسماعيل بن بدر مغنية قبيحة الصوت ، فيتخيل أن كلاباً تهارشت فى حلقومها ، ويشبه صوتها بنقيق الضفادع :[4]

فو الله ما أدرى كلاباً تهارشت ... بحلقومها أم نقنقت بى ضفادع

ويستحضر الرشاش صورة القرد بما توحى به من دمامة وما ترمز إليه من إيحاءات جنسية . فيقول فى هجائه لأحد الأشخاص :[5]

ووجهه يحكى لنا القرد فى ... صورته قبحاً وفى نعته

---

[1] أعمال الأعلام ص ٢٤١ .
[2] التشبيهات ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
[3] نفح الطيب ٥ / ١٤١
[4] التشبيهات ص ٢٤٥ .
[5] نفسه ص ٢٥١

التأثر بالثقافات الجديدة :

تسللت أنماط الثقافات والعلوم الجديدة إلى صور الهجاء ، كقول أحدهم في هجاء مغنية : [1]

كأنها والعود في حجرها ... حاسبة تنبي بمجدور

ويسخر ابن عبد ربه من مائدة أحد البخلاء فيشبهها بالنقطة التي يلتف حولها المدعوون في دائرة : [2]

ومائدة جسمها لطفه ... يدل على صفقة خاسرة

فتلك لنا قد غدت نقطة ... ونحن عليها نرى دائرة

التراث الديني :

واتكأ الهجاءون على التراث الديني ، فاسترفدوا منه كثيراً من صورهم ، فمن ذلك قول أحد الشعراء في هجاء امرأة قبيحة الوجه : [3]

تبدو بوجه ما رآه امرؤ ... إلا تمنى النفخ في الصور

ويستحضر ابن الخطيب صورة أصحاب الرقيم في هجائه لأهل عصره فيقول : [4]

أدور فلا أرى إلا نياما ... كأني بين أصحاب الرقيم

ويشبه المنفتل صاحب لبلة في عنفه وقسوته بخدام جهنم : [5]

إن ابن يحيى ضحكة فتوسم ... واذكر به خدام نار جهنم

---

(1) التشبيهات ص ٢٤٦ .

(2) نفسه .

(3) التشبيهات ص ٢٤٦ .

(4) نفسه ص ٦١٨ .

(5) الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٦١ .

وأكثر الشعراء من اقتباس الصور المستمدة من القصص الديني كقول ابن خفاجة في غلام وجهه في حاجة فأبطأ فيها : [1]

أبطأ في سعيه فحاكى ... في حالتيه غراب نوح

ويسخر سعيد بن العاص من شخص أخلعه ثوبه فيقول [2]

وثوبه في سالف الزمان ... خلعة فرعون على هامان

ويقتبس ابن صارة إحدى صوره من قصة سليمان فيقول في هجاء شخص قبيح الفم : [3]

كأن جن سليمان بنوا فمه ... بنيان تدمر بالصفاح العمد

ويسترفد السميسر من قصة إبراهيم فيقول في هجائه لأحد البخلاء : [4]

حاد عن بخل عليّ ... تلك في العالم ندرة
فهي كالنار اعترتها ... عصر إبراهيم قره

ويشير إلى تفجر المياه من الصخر في قصة موسى فيقول : [5]

جاد نزراً فقبلنا ... درهم الساقط بدره
عجب الناس وقالوا ... كيف نيلت منه ذرة
هل رأيتم بعد موسى ... أحداً فجر صخره

ويسترفد إبراهيم بن أغلب الخولاني صوره مما ورد في سورة (المسد) فيقول : [6]

---

(1) ديوانه ص ٣٧٤ .
(2) التشبيهات ص ٢٥٢ .
(3) الذخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .
(4) خريدة القصر ٢ ١٦٨ .
(5) نفسه ٢ / ١٦٨ - ١٦٩ .
خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

سائل بقفصة هل كان الشقى لها — بعلا فكانت له حمّالة الحطب
تبت يدا كافر بالله ألهبها — فكان كالكافر الأشقى أبى لهب
لمّا زنت وهى تحت الأرض محصنة — رجمتموها اتباع الشرع بالحصب

الموروث القديم :

واستوحى بعض الهجائين صورهم من التراث القديم . كصورة الطلل والرسوم التى استحضرها سليمان بن عبد الله البردى فى قوله

كأن مرجيه المؤمل واقف — على طلل من ساكنى الحى بائد
يسائل منه صامتاً غير ناطق — كمستخبر جهلا رسوم المعاهد

وتتردد صورة الرسم القديم أيضاً عند ابن الخطيب .[1]

عفت أعلام آدابى وعلمى — بهم فبقيت كالرسم القديم

وأكثر بعض الشعراء من ت ديد الصور والتشبيهات القديمة كقول ابن حربون :[2]

فمزّقتمُ شملهم فى البلاد — كأنهم جمل أجرب

ويشبه الغزال كاهل امرأة بسنام العيس الذى أصابه الهزال من كثرة السفر والترحال -- وهى صورة قديمة — فيقول .[3]

وكاهل كسنام العيس جرده — طول السفار وإلحاح القتودات

ويستعير أحمد بن نعيم إحدى صوره من البيئة الصحراوية القديمة فيقول فى هجاء امرأة :[4]

لو كنت نبتاً كنت من حرمل — أو أكلا كنت من الكامخ[5]

---

[1] التشبيهات ص ٦١٨ .
[2] المن بالإمامة ص ٣٦١ .
[3] يحيى بن الحكم الغزال للنداق ص ١٨٥ .
[4] التشبيهات ص ٢٤٠
[5] الحرمل نبت كالسمسم يمتنع على الأكلة . وفى ذلك يقول طرفه : (هم حرمل اعيا على كل الآكل)
والكامخ : نوع من الادام تعيفه الأعراب .

الصور المقذعة والمنفرة :

مال كثير من الهجائين في شعرهم إلى الإقذاع ، ولم يتورعوا عن صياغة الصور التي تخدش الحياء ، وتثير الاشمئزاز والنفور ، وسنجتزىء في ذلك ببعض الأمثلة للدلالة على شيوع هذه الظاهرة ، فمن صورهم المقذعة قول ابن صارة : [1]

له فم كحر في شكل صورته " ترمي غوار به العبرين بالزبد "

ويقول الأعمى المخزومي في رجل يطير لعابه إذا تكلم : [2]

لا شيء أشبه من خسيس طباعه إن حققت بطباع أسد الماء
يمتص أفواه ...... بفقحة وبثها في أوجه الجلساء

ومن هذه الصور قول ابن شهيد في أحد الكتاب : [3]

وذو عرق ليس ماء الحياء ولكنه رشح فضل الجنابه
جرى الماء في سفله جرى لين فأحدث في العلو منه صلابه

ولم تسلم صور شاعر كابن خفاجة من صفة الإقذاع ، فحين كتب إليه ابن دراج النحوي شعراً يعرض فيه بسبه وقع ابن خفاجة على ظهر رقعته بقوله : [4]

ومعرض لي بالهجاء وهجره جاوبته عن شعره في ظهره
فلئن تكن بالأمس قد لطنابه فاليوم أشعاري تلوط بشعره

ومن الصور التي تثير التقزز والنفور قول السميسر في هجاء المرية : [5]

كأنها طست تبر وبعق الدم فيه

---

[1] الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .
[2] زاد المسافر ص ١١٧ .
[3] ديوان ابن شهيد ص ٩٥ .
[4] ديوانه ص ٣٥٢ .
[5] نفح الطيب ٣ / ٣٩٠ .

ونقع على مثل هذه الصور المقززة فى قول ابن صارة : [1]

فـــإذا شـــحافاه رأيـــت خنافســـاً يـــأوين مـــن فـــيه إلى المـــرحاض

ونلمسها أيضاً فى هجاء المنفتل للأفوه الجزار : [2]

تـــبدو عـــلى أضراســـه صـــفرة كأنـــه مـــن فمـــه قـــد خـــرى
حديـــثه أوحـــش مـــن وجهـــه وشـــعره يشـــبه ذاك الطـــرى

الصور المعنوية :

واستمد بعض الشعراء صورهم من الأوصاف المعنوية ، ولهم فى ذلك صور جيدة كقول عبادة فى رجل قصير القامة : [3]

وصـــاحب لى كـــأن قامـــته أقصـــر مـــن يـــوم وصـــل معشـــوقى

وقول إدريس بن اليمان العبدرى فى لحية طويلة عريضة : [4]

لـــو أنهـــا دون الســـماء ســـحابة لم تخترقهـــا دعـــوة المظلـــوم

ونقع فى هجاء الأندلسيين على كثير من الصور التى تتسم بالغرابة والطرافة كقول ابن بليطة فى ساق أحدب أسود اللون : [5]

وإذا ســـعى بالكـــأس تحســـبه جعـــلا يدحـــرج فـــص ياقوتـــه
وكأنـــه والكـــأس فـــى يـــده نجـــم رمـــى فـــى الجـــو عفريـــته

وعلى هذا النحو تراوحت صور الهجاء الأندلسى بين الطرافة والإغراب والميل إلى الإقذاع والتأثر بالبيئة والاتكاء على التراث الدينى والموروث القديم .

---

(1) الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .
(2) نفسه ١ / ٢ / ٧٦٠ .
(3) التشبيهات ص ٢٤٨ .
(4) المغرب ١ / ٤٠٠ .
(5) الذخيرة ١ / ٣ / ٧٩٦

الخاتمة

الخاتمة

يمكن أن نجمل أهم نتائج هذه الدراسة فى النقاط التالية :

أولاً : أن سوق الهجاء الأندلسى كانت رائجة بخلاف ما توهم كثير من الباحثين فتنوعت موضوعاته وتعددت ، ولولا إعراض بعض نقاد الأندلس عن إثبات الهجاء فى مؤلفاتهم لظفرنا بقدر كبير من شعر الهجاء .

ثانياً : كان الهجاء السياسى أكثر اتجاهات الهجاء الأندلسى رواجاً وازدهاراً لارتباطه بدوافع سياسية فرضتها ظروف الأندلس وقد تنوعت موضوعات الهجاء السياسى فكان هناك هجاء الملوك والحكام والهجاء القبلى وهجاء اليهود وهجاء الفرنجة وهجاء البربر .

ثالثاً : اتسع مفهوم الهجاء الأندلسى وتطور تبعاً للتطور الحضارى ، فلم يعد الهجاء محدوداً بنزعة قبلية أو هجاء شخصى بل اتسع نطاقه فتوزع بين هجاء سياسى واجتماعى وملاحاة بين الشعراء وشمل هجاء المدن والمظاهر الحضارية والمغنين والعلماء ومال إلى الدعابة والتظرف تأثراً بروح الحضارة.

رابعاً : لم يعمد الشعراء الأندلسيون فى هجائهم إلى السب المباشر بل اتجه كثير منهم إلى رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة التى تقوم على التجسيم والتضخم والبراعة فى لمح الدقائق والعيوب التى تثير السخرية والإضحاك.

خامساً : لم يقتصر الهجاء الأندلسى على القصيدة الشعرية وحدها بل تجاوزها إلى النثر وإلى أشكال أدبية أخرى كالموشح والزجل .

سادساً : وجد شعراء أندلسيون قامت شهرتهم على الهجاء كالسيسر والأبيض وابن حزمون والمخزومى الأعمى وغيرهم .

سابعاً : لم ينفرد الشعراء وحدهم بفن الهجاء بل شاركهم فيه شواعر أندلسيات مثل نزهون ومهجة وولادة وغيرهن .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع :

١- ابن الأبار - حياته وكتبه - تأليف عبد العزيز عبد المجيد ط. تطوان ١٩٥٤ .

٢- الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ .

٣- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، ابن سعيد ، تحقيق الإبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٤- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٥- أدب الفقهاء ، عبد الله كنون ، ط . دار الكتاب اللبنانى .

٦- أزهار الرياض في أخبار القاضى عياض ، المقرى ، تحقيق السقا والإبيارى وشلبى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٧- أساس البلاغة ، الزمخشرى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٨- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٩- الأغانى (جـ٢) ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

١٠- ابن زيدون ، د. شوقى ضيف (سلسلة نوابغ الفكر العربى) ط. دار المعارف بمصر . الطبعة الثانية .

١١- أبو البقاء الرندى شاعر رثاء الأندلس . د. محمد رضوان الداية ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦

١٢- بدائع البدائه ، ابن ظافر ، ط. بولاق ، ١٢٧٨ هـ .

١٣- بغية الملتمس ، الضبى ، ط. مجريط ، ١٨٨٤

١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، ابن عبد البر القرطبى ، القسم الثانى ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، ط. دار الكاتب العربى بالقاهرة .

١٥- البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ابن عذارى:

أ : القسم الثالث ، تحقيق هويس مرانده ، ط. تطوان ١٩٦٠.

ب : الجزء الثالث ، تحقيق ليفى بروفنسال ،باريس ، ١٩٣٠.

١٦- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩ .

١٧- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - د. إحسان عباس ، بيروت .

١٨- تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ط. مجريط ، ١٨٦٨ .

١٩- تاريخ مسلمى أسبانيا (الحروب الأهلية) ، دوزى ، ترجمة د. حسن حبشى ، ط. دار المعارف ١٩٦٣ .

٢٠- تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، د. محمد زغلول سلام ، ط. دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٢

٢١- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتانى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الشروق . بيروت ١٩٨١

٢٢- التطور والتجديد في الشعر الأموى ، د. شوقي يف ، ط. دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨١ .

٢٣- التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار ، مجريط ، ١٨٨٦ .

٢٤- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٥- جذوة المقتبس ، الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٦- حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٧- الحلة السيراء ، ابن الأبار ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .

٢٩- خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني (قسم شعراء المغرب) ، تحقيق محمد المرزوقي وآخرين ، ط. تونس ١٩٧١ - ١٩٧٣ .

٣٠- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة .

٣١- دراسات في الأدب العربي ، العصر العباسي - د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٣٢- درة الحجال فى أسماء الرجال ، ابن القاضى ، تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور ، نشر دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٣- دمية القصر وعصرة أهل العصر ، الباخرزى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط. دار الفكر العربى ، القاهرة .

٣٤- ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط. بيروت ، ١٩٧٦ .

٣٥- ديوان ابن حمد يس ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٠.

٣٦- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق د. السيد مصطفى غازى ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .

٣٧- ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط. البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٣٨- ديوان ابن سهل ، ط. بيروت ١٩٦٧ .

٣٩- ديوان ابن شهيد ، تحقيق يعقوب زكى ، ط. دار الكاتب العربى ، القاهرة .

٤٠- ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكرى ، ط. مصر ١٣٥٢ هـ .

٤١- ديوان ابن هانىء ، تحقيق كرم البستانى ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٢ .

٤٢- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنترينى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٤٣- الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، عبد الملك المراكشى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ٦٤ / ١٩٦٥

٤٤- الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى ، ابن حزم . تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠

٤٥- رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٤٦- روض القرطاس ، ابن أبى زرع ، فاس ، ١٣٠٣ هـ .

٤٧- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، صفوان بن إدريس ، تحقيق عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٧٠ .

٤٨- الشعر الأندلسى (بحث فى تطوره وخصائصه) ، غرسيه غومس ، ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٤٩- الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

٥٠- الشعر العربى فى صقلية ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

٥١- الشعر فى ظل بنى عباد ، محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان ، العراق ، ١٩٧٢ .

٥٢- الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، د. محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف .

٥٣- صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الرابع عشر .

٥٤- طبقات الأمم ، القاضى صاعد ، ط. مصر .
٥٥- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحى ، تحقيق محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة .
٥٦- طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
٥٧- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ٥٢ — ١٩٦٥ .
٥٨- عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، النواجى ، مصورة عن مخطوطة الاسكوريال .
٥٩- الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ابن سعيد ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثالثة .
٦٠- فن الهجاء ، إيليا حاوى ، بيروت .
٦١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٠ .
٦٢- فهرسة ابن خير ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٣ .
٦٣- فى الأدب الأندلسى ،د. جودت الركابى ، ط. دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٠ .
٦٤- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، الخشنى ، ط. مصر ، ١٣٧٢ هـ .
٦٥- قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، ط. مصر ١٢٨٣ هـ .

٦٦- لسان العرب ، ابن منظور ، ط. الدار القومية ، القاهرة .

٦٧- مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٨١ .

٦٨- محمد بن عمار الأندلسى ، د. صلاح خالص ، ط. بغداد ، ١٩٥٧ .

٦٩- مذكرات الأمير عبد الله (التبيان) ، تحقيق ليفى بروفسال ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٧٠- مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، الفتح بن خاقان ، ط. الجوائب ، ١٩٠٢ .

٧١- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشى ، تحقيق العريان وآخرين ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٧٢- معجم الأدباء ، ياقوت الحموى ، ط. مصر .

٧٣- معجم السفر . السلفى ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ .

٧٤- مع شعراء الأندلس والمتنبى (سير ودراسات) ، غرسيه غومس ، تعريب ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٧٤ .

٧٥- المغرب فى حلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف ، القاهرة .

٧٦- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. محمود مكى، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ .

٧٧- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، ط دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٥

٧٨- المن بالإمامة على المستضعفين ، ابن صاحب الصلاة ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤

٧٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٨٠- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عيسى منون ، القاهرة.

٨١- نقد النثر ، تحقيق د. طه حسين والعبادى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٧ .

٨٢- نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٨٣- الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .

٨٤- الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .

٨٥- وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ، ابن خلكان ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٨٦- يحيى بن الحكم الغزال ، محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٧٩ .

٨٧- The Moors in Spain, Stanly Lane - Poole, London, 1920

الفهرس

الفهـــــرس

الباب الأول

(مراحل تطور الهجاء) ٩

الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى ١١

العوامل المؤثرة فى الهجاء الأندلسى ١٦

العوامل السياسية ١٦

العوامل الاجتماعية ١٧

أثر البيئة المتحضرة ١٨

التكسب بالهجاء ١٨

نقاد الأندلس والهجاء ٢٠

الباب الثانى

(اتجاهات الهجاء الأندلسى) ٢٧

الفصل الأول

الهجاء السياسى ٣١

هجاء الملوك والحكام ٣٤

الهجاء القبلى ٥٨

هجاء البربر ٦٢

رسالة الشقندى فى الدفاع عن الأندلس ٦٨

هجاء اليهود ٧٢
هجاء الشعوبية ٨٠
رسالة ابن غرسية ٨٤
رد ابن الدودين البلنسي على رسالة ابن غرسية ٨٩
رد ابن من الله ٩٢
رد يحيى بن مسعدة ٩٤
هجاء الفرنجة ٩٧

الفصل الثاني

هجاء أصحاب المناصب الرسمية ١٠٣

هجاء الوزراء ١٠٥
هجاء الولاة والعمال ١٠٩
هجاء القضاة ١١٢
هجاء الفقهاء ١١٥

الفصل الثالث

هجاء العلماء وأصحاب المهن ١١٩

هجاء المعلمين والمؤدبين ١٢١
هجاء النحاة ١٢٢
هجاء الفلاسفة ١٢٢
هجاء أصحاب العلوم الطبيعية ١٢٧

هجاء الكتاب ١٢٩

الفصل الرابع

الهجاء الاجتماعى ١٣٣

نقمة الفرد على المجتمع ١٣٥

الرذائل الخلقية ١٣٨

التصدى لمظاهر الفساد ١٣٩

هجاء البخلاء ١٤١

هجاء الأهل والأقارب ١٤٣

هجاء المظاهر الحضارية ١٤٦

هجاء المغنين والمغنيات ١٤٨

هجاء المدن ١٤٩

الفصل الخامس

هجاء التندر والسخرية ١٥٣

التندر بالمؤدبين والقضاة والبخلاء ١٥٥

هجاء الذات ١٦٢

العيوب الخلقية ١٦٤

الرسالة الهزلية لابن زيدون ١٧١

الفصل السادس

المعارك الهجائية بين الشعراء ١٧٥

الباب الثالث

الجوانب الفنية لشعر الهجاء ١٨٩

الفصل الأول

لغة الهجاء ١٩٣
الميل إلى السهولة والبساطة ١٩٥
النزوع إلى الشعبية ١٩٦
التأثر بالثقافات الشائعة ١٩٨
استلهام التراث ١٩٩
الاحتفاء باللغة ٢٠٠

الفصل الثاني

صور الهجاء الأندلسى ٢٠٣
التأثر بالبيئة ٢٠٥
التأثر بالثقافات الجديدة ٢١١
التراث الدينى ٢١١
الموروث القديم ٢١٣
خاتمة ٢١٧
المصادر والمراجع ٢٢١

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net

تم بحمد الله

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية